



التَّوْضِيحُ الْمُبِينُ لِتَوْجِيدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنَ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
١٣٧٩ - ١٤٠٧ هـ

تصحيح
الشيخ العلامة
محمد بن سليمان بن عبد العزيز الزحبي

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة - صوب
هاتف: ٥٥٠٥٣٠٥ - فاكس: ٥٥٠٥٣٠٥
هاتف: ٥٥٥٧٦٦٠ - فاكس: ٥٥٥٧٦٦٠

الإيفاء والإخراج دار عالم الفوائد

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربه. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أهل البر والوفاء، ومعدن التقوى والصفاء، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فإن علم التوحيد أشرف العلوم وأساسها، فبالتوحيد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء / ٢٥] فبالتوحيد مع رحمة الله تنال الكرامات، وترفع الدرجات، وتندفع الشرور والمهلكات. وقد ألف شيخنا عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله في هذا شرحًا لأبيات من «الكافية الشافية» لابن القيم موسومًا بهذا «كتاب شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»، ورأيت أن أجعل عنوانه «التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»، وقد طبع في حياة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر هذا الكتاب بعنوان «الحق الواضح المبين»، ولكنه مختصر غير واف بالمقصد. ولما عثرنا على هذا بخطه رحمه الله رغبتنا في نشره من أجل الفائدة، وهذه أول طبعة منه، وقد عنت فيها بتصحيح الأخطاء في بعض الآيات وعزوها إلى الشؤر وترقيمتها، وعزو النقول إلى مصادرها، ووضعنا له فهرسًا.

فإليك أيها القارئ الكريم نرف هذه الجوهرة النفيسة، والذرة الثمينة، فهي كنز من كنوز علم التوحيد. رحم الله ناظمها وشارحها، فإنهما بذلا مجهودًا عظيمًا فيها، فجزاهما الله خير الجزاء، وضاعف لهما الأجر بمنتهى وفضله إنه الجواد الكريم.

کتابخانه ملی

محمد بن سليمان البسام

[illegible]

بداية الشرح من أصل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله العظيم الكبير، الحميد المجيد، الذي له الألوهية وصفا كما العبودية وصفا للعيد، الموصوف بالأوصاف الكاملة العليا، المدعو بالأسماء الحميدة الحسنى، الذي له كل كمال وجلال وجمال، ولديه كل إحسان ونعمة وإفضال، الذي خلق الخلق وأدرّ عليهم واسع الرزق ليقوموا بتوحيده ومحبته وعبادته، فيثيبهم ويتم عليهم نعمته بأصناف كرامته، أحمدته على ماله من وصف عظيم، وإحسان جسيم، وبر وتكريم، وأشهد أنه الإله حقاً، الذي دل على توحيده جميع أدلة العقل والنقل، وأذعن لعبوديته أهل الكمال والفضل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفضل العارفين، وأجلّ الموحدين، وواسطة عقد نظام الأنبياء والمرسلين، وهو الإمام الكامل لجميع العابدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، وأوجدهم للقيام بمعرفته ومحبته، وبين لهم في كتبه المنزلة من السماء وعلى السنة رسله تبييناً كافياً، وأوضح لهم جميع الطرق الموصلة إلى هذه الغاية الفاضلة توضيحاً وافياً، خصوصاً في القرآن العظيم وعلى

وكما قاله الإمام حسن طراز في الحاشية: فإنا لله وإنا إليه راجعون
منشأ لكم اللهم العفو والعافية في الدنيا والآخرة وامنحنا ما نحتاجه من
ما كثر شؤرك وتيسيره وتيسره وحملنا له ونصحه ونكرهه ونكرهه
ثم ما اردت تعليقه ورسالة الحق والفضل والإحسان وصلى الله عليه
وسلم تسليماً كثيراً قرأت ما تسويده في ٣ شعبان ١٣٤٤
والفقير المذنب المذنب المذنب المذنب المذنب المذنب المذنب المذنب

لسان محمد النبي الكريم، فإن في القرآن والسنة من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته وتوحيده مالم يس في غيرهما، فتعين على العباد الإقبال عليهما، والتدبر والتفكر فيهما، إذ لا سبيل لهم إلى معرفة ما خلقوا له إلا بمعرفتهما، ولا طريق لهم إلى الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته إلا بالقيام بحققهما.

ولما كان الباري تعالى قد امتن على هذه الأمة بعلماء ربانيين، وفضلاء متقين، قد بذلوا نفائس أعمارهم، وأعملوا جواهر أفكارهم في استخراج كنوز الوحي ومعانيه، وحل ألفاظه المعصومة ومبانيه، فحصل لهم به علم كثير وفضل عزيز، وصاروا الهداة للأمة الأئمة، واقتدى بهديهم وسيرهم وطريقتهم جميع أصناف الأمة. ومن له في هذا الشأن القدم العليا، والقدر المعلى، والباع الأعلى: الإمامان العظيمان، والحافظان الثقتان، شيخ الإسلام تقي الدين الإمام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، والإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، قدس الله أرواحهما، فإنه قد حصل لهما من العلم والفهم للكتاب والسنة واستخراج علومهما مافاقا فيه كبار العلماء، وسبقا فيه الجهابذة النبلاء، خصوصًا علم التوحيد والعقائد السلفية، فإن الله من على المسلمين بهما، وبيننا لهم من ذلك عالم يبينه أحد، ونصرا مذهب أهل السنة والحق نصرا عظيمًا، ودحضا مذاهب الضالين والمبتدعين، فصنفا في ذلك المصنفات التي سارت في مشارق الأرض ومغاربها، وانفع بها

الموافق والمخالف. ومعرفة كتبهما والوقوف عليها فيه كفاية لمعرفة أقدارهما وعلو مراتبهما.

ولما كانت «الكافية الشافية» لشمس الدين ابن القيم قد اشتملت على عالم يشتمل عليه كتاب في فن التوحيد والعقائد والأصول، واحتوت على تفاصيل كثيرة لا توجد في سائر الكتب، حتى كتب مؤلفها، وكان قد تكرر علي الطلب من بعض الأصحاب في وضع تعليق عليها، فرأيت ذلك من الأمور المتعسرة علي، لأنه يستدعي وقتًا كثيرًا، ويشغلني عن ما هو أهم عندي منه. ثم استخرت الله تعالى علي وضع شرح لطيف علي توحيد الأنبياء والمرسلين منها، ومتعلقاته ما هو أهم مافيهما وأحسنه، والحاجة بل الضرورة ماسة إلى معرفته، وربما كان الاقتصار عليه أولى وأنفع من السعي في شرح جميعها لأمر كثيرة، وأكثر في من النقل لعبارات المؤلف في كتبه التي فيها إيضاح وتبيين يُعين علي فهمها، لأنه أحسن ما يشرح كلامه بكلامه، فجاء بحمد الله كتابًا وافيًا بمقصوده، محتويًا على جواهر نفائس علم التوحيد، الذي هو أشرف العلوم علي الإطلاق.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين،

ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعتلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة، الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته، وأدلته وبراهينه، وآثاره الفاضلة، فهو التوحيد الذي بعث الله به رسوله، وأنزل به كتبه، وأقام الأدلة والبراهين على صحته، وتعينه طريقاً للنجاة، وأنه لا خير ولا ضرر ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بسببه، وهو الذي أعد الله لأهله ومن قام به أنواع الكرامات، ولمن لم يقم به أنواع العقوبات، وهو الذي عليه المدار والأساس لجميع الأعمال، فكل عمل غير مبني على التوحيد فهو باطل مضمحل، وكل بناء بني على غيره فهو بناء على شفا جرف هار، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق، وأكملهم عقولاً وآراء، وأجمعهم للمحاسن، وهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم.

وبكده ورده كل ملحد ومعتل، ممن مرجت أديانهم، وفسدت عقولهم، واكتسبوا شر الأخلاق، وعظلت قلوبهم من معرفته

ومحبته، وألستهم من ذكره، وجوارحهم من طاعته، ممن خالفوا الأنبياء والمرسلين في توحيدهم وطريقهم في الدليل والمدلول، فتوحيد الأنبياء والمرسلين مشتمل على الحق والصدق، المزمكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح، وكل دليل نقلي صحيح. وتوحيد الملاحدة والمعتلين مشتمل على أبطل الباطل، مؤيد بالشبه التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي على جهل أهلها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذا توحيد رسل الله ثم اجعله داخل كفة الميزان مع هذه الأنواع وانظر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان وهذا لأن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويبين بمعرفة الباطل، فإنك إذا وزنت ميزان العقل الحقيقي والفطرة الأولى التي لم تغير، والقواطع الدالة على الحقائق، توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد غيرهم، وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، وكيف يوزن توحيد المعتلين والملحددين، المشتمل على مسبة رب العالمين ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى رسله وكتبه، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساوياً للمخلوق الكامل من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المشتمل على تعظيم رب العالمين وتقديسه، والثناء عليه بأكمل الثناء، ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التمثيل والتشبيه، ومشاركة

أحد من المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة. وكيف يوزن توحيد يرقى بمن قام به إلى أعلى عليين، بتوحيد ينزل بصاحبه إلى أسفل سافلين؟ أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًا وظاهرًا مرضيًا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال، وأرذل الخصال، والشقاء الأبدى، والعذاب السرمدي؟

توحيدهم نوعان قولى وفعلى كلا نوعيه ذو برهان
يعني أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلى، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي في آخر هذه الفصول، وهو المعبر عنه بتوحيد العبادة، وتوحيد الألوهية. وسمى توحيدًا فعليًا لأنه يتضمن أفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأن لا يتخذ له شريك ولا ند.

والثاني: التوحيد القولى المشتمل على أقوال القلوب، وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله به. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات، الذي يدخل فيه توحيد الربوبية، وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف رحمه الله بالتوحيد القولى فقال:

فالأول القولى ذو نوعين أي ضًا في كتاب الله موجودان
إحدهما سلب وذا نوعان أي ضًا فيه مذكوران

سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان
يعني أن التوحيد القولى على نوعين موجودين في كتاب الله:
أحدهما سلب، أي نفي للنقائص والعيوب عن الله، والثاني:
إثبات الصفات الكاملة لله، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب
لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود إثبات صفات المدح
والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص
فإنه متضمن للمدح والثناء بضد ذلك النقص، من الأوصاف
الحميدة والأفعال الرشيدة، وهذا السلب على قسمين، ذكرها
المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومتفصل هما نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الش شمع بدون إذن الخالق الديان
وكذلك سلب الزوج والولد الذي نبوا إليه عابدو الصلبان
وكذلك نفي الكفو أيضًا والولد سي لنا سوى الرحمن ذي الغفران
يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص، ويسلب عنه من العيوب،
نوعان:

سلب لمتصل، وضابطه: نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو
وصفه به رسوله، كما سيأتي.

وسلب لمتفصل، وضابطه: تنزيه رب العالمين أن يشاركه
أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كنفي

الشريك لله، فإن الله متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له شريك في الملك، وليس له أيضًا ظهير أي عوين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذه مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه ينفي عنه أن يشفع أحد عنده على وجه يكون نقصًا في حق الله، كأن يشفع عنده أحد بغير إذنه، كما يشفع الوزراء عند الملوك والسلطين. وأما الشفاعة عنده بإذنه فإنها ثابتة، كما أثبتها الله في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته تعالى وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أمره بالشفاعة فيه، ومع هذا فلا يأذن لأحد بالشفاعة إلا فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا متابعًا للرسول. قال تعالى نافيًا هذه المراتب الثلاثة الملك والشركة فيه والعوين له والشفاعة بغير إذنه عن كل من عبد من دونه من أهل السماء وأهل الأرض: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ شَيْءٍ دَرَرَ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا/ ٢٢- ٢٣] فقطع في هذه الآية كل سبب يتوصل به المشركون لدعوة غيره، وأن من كان بهذا الوصف لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك يسلب وينفى عن الله الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصليبان، وهم النصارى، حيث قالوا: المسيح ابن الله، وكذلك نسبه إليه عباد الأصنام، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من أثبت له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْلًا وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص/ ١]، وقال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون/ ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۝﴾ [الزخرف/ ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الأنبياء/ ٢٦- ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَبَ اللَّهُ أَلَّهُ أَفْ يَبُوءُ كُفُوتَ﴾ [التوبة/ ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۝﴾ [المائدة/ ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَعَنَى عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ [البقرة/ ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون فقراء إليه. فمن كان كذلك فمن أين يتخذ صاحبة أو الولد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝﴾

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنشُقُ الْأَرْضُ وَغَيْرُ اللَّيَالِ هَذَا ① أَنْ دَعَوْا
لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ② وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ③ إِنْ كُنْ مِنْ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ④ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ⑤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَرْدًا ⑥ [مريم / ٨٨ - ٩٥].

وقول المصنف: «نسبوا إليه عابدوا الصليبان» هذا على لغة من
يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة
ضعيفة تحمل عليها الضرورة^(١)، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل
المسند إلى الظاهر، فيقال: «نسب إليه عابدوا الصليبان».

وقوله: «وكذلك نفى الكفر أيضا» أي يتعين أن ينفي عن الله
الكفر، الذي نفاء عن نفسه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ﴾ [الإخلاص / ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم / ٦٥]، فلا
تجعلوا لله الأنداد، ليس كمثله شيء، فليس أحد من الخلق مكافئا
لله، أي مساويا له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال،
لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم
يكمله ربه يكمله اللائق به، فليس أحد له صفات تقارب صفات
الله، أو له أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال
بفعل شيء أصلا، حتى يعينه الله على أفعاله، ولهذا كانت أفعال

(١) قوله الضرورة قلت: قد وردت في كتاب الله في موضع واحد في
سورة الأنبياء وهي قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَالَّذِينَ ظَنُّوا
وَلَمْ تَحْمِلْ عَلَيْهَا الضَّرُورَةَ وَلَكِنَّا لَغَةً ضَعِيفَةً كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ.

العباد تابعة لمشيئته، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ⑦
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ⑧.

وكذلك مما ينفي عن الله أن يكون لنا ولي من دونه يحصل لنا
المطالب الدينية والدنيوية، أو يدفع عنا مضار الدين والدنيا، بل
ليس لنا ولي إلا هو، فهو الذي تولى خلقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة
والخاصة، فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير، الشاملة للبر
والفاجر. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ⑨
[البقرة / ١٠٧]. والولاية الخاصة هي ولايته للذين آمنوا وكانوا يتقون،
يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم
والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ⑩ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ⑪ [يونس / ٦٢ -
٦٣]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة / ٢٥٧].

وكذلك لا يتخذ أحدًا من خلقه وليًا من الذل، لكمال اقتداره
وعظمته، بل يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا منه إليهم،
يحبهم ويحبونه، والحاصل أنه ليس أحد من الخلق مساويا لرب
العالمين، أو معائلا أو عويثا أو وزيرًا بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله وعزوب شيء عنه في الأكوان
هذا القسم الأول من قسمي السلب المنقي عن الله، وهو

التنزيه لله عن أن يتصف بغيب أو نقض يناقض كمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزّه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال القدرة، منزّه عن ما يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفاً بشيء من ذلك لكان ناقص القدرة. قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان/ ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْكِينٌ لَّغُوبٍ﴾ [ق/ ٣٨].

وهو تعالى موصوف بالحياة الكاملة التامة، منزّه عن ما يضادها من النوم والنعاس الذي هو أصل النوم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»^(١).

وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السموات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ومنزّه عن كل ما ينافي ذلك، فلا يعزب أي يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السموات والأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران/ ٥]. وقال تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي

(١) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ [سج/ ٣].

وكذلك العبد الذي تنفيه حكيمته وحمد الله ذي الإنسان وكذلك ترك الخلق أهماً لآسدي لا يعيشون إلى معاد ثانٍ كلاً ولا أمر ولا نهى عليهم من إله قادر ديان

أي وكذلك ينزه الله عن العبد في الخلق والأمر، وأنه خلق شيئاً عبثاً وباطلاً، أو شرع شيئاً عبثاً، لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المخلوقات وإحكامها، وإحسان المأمورات على أكمل وجه وأتمه، وهذا أمر مشهود في الخلق والأمر، تُخَيَّرُ حكمته الأبواب، ويستدل بما بان من الحكمة فيها على ما خفي على العباد، ومن تمام الحكمة أنه لم يخلق الخلق سُدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي بالبعث بعد الموت، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية، ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت/ ١١٥]. فتعالى الله المليك الحق [المؤمنون/ ١١٥ - ١١٦]، أي عن هذا الظن والحسبان، لأنه لا يليق بجلاله. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [الزمر/ ٣٦]. ثُمَّ كَانَ عَقْلُهُ فَطَّرَ سُودَى [القيامة/ ٣٦ - ٣٨]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه

مهملاً سُدًى، لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب. قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [النقص / ٨٥].

وكذلك ظلم عباده وهو الغني فماله والظلم للإنسان أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الظلم للعباد، بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله تعالى، الغني عن خلقه من جميع الوجوه، العادل الحميد، فماله وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [نصحت / ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَجَةً وَإِنَّ تِلْكَ حَسَنَةً يُفْعَلُهَا﴾ [النساء / ٤٠]. ﴿وَمَنْ يَمَسَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه / ١١٢]. وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا». رواه مسلم من حديث أبي ذر.

وكذلك غفلته تعالى وهو عا سلام الغيوب فظاهر البطلان وكذلك النسيان جل إلها لا يعتريه قط من نسيان وكذلك حاجته إلى طعام ورزق وهو رزاق بلا حبان أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الغفلة والنسيان، لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط، لا يعرض له ما يعرض لعلم غيره، من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها أو الذهول عنها. كما قال تعالى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحِصِلُ رَبِّي وَلَا يَسَى﴾ [٥٥].

[طه / ٥٢]. وكذلك ينزه تعالى عن احتياجه إلى الطعام والرزق، لأنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق، الغني عنهم، وكلهم فقراء إليه، محتاجون إليه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات / ٥٦ - ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يَلْعَلُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ [الأنعام / ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي هو أول الأنواع في الميزان تنزيه أوصاف الكمال له عن النقص بوجه والتشبيه والتكرار لنا تشبه وصفه بصفاتنا إن التشبه عبث الأوثان كسلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عبث البهتان من مثل الله العظيم بخلقه فهو النيب لمشرك نصراني أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلب، «في الميزان» أي في هذه القصيدة. وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل، المتضمن لتنزيهه عن النقص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به، وعن ما يناقض كماله. وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله، وتعبير جلاله، عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال علم الله أو قدرته كعلم الخلق أو قدرهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، ونحو ذلك، فإن هذا كله تشبيه لله بالخلق.

ومن كان بهذه الحال فإنه يمثل بفكره صنًا ووثًا يعبد، كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم، جعلوه إلههم ومعبودهم، فالمشبه نسيب ومشبه للنصراني، ورب العالمين فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين، فصفاته لا تشبهها صفاتهم.

وعن تعطيل صفاته ونقيها، كما فعلته الجهمية المعطلة ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة، الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوجهه الفاسد، ويضيق قلبه متعبدًا للعدم المحض، لأنه لا يعقل ذات ليس لها صفة ولا نعت، ولا يُعقل من قول الجهمية ومن تبعهم: «إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه» إلا العدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به، ولهذا قال المصنف: «فهو الكفور وليس ذا إيمان». ولكن سيأتي إن شاء الله في كلام المصنف حكم الجهمية وغيرهم من المعطلة، والتمييز بين من يكفر منهم ومن يُعذر بتأويله.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبه، ومعطل.

فالمؤمن الموحد يصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، من صفات الكمال، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من

أوصاف الله.

والمشبه هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله. والمعطل هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المشبه والمعطل قد حُرِم الوصول إلى معرفة ربه على وجهها، وابتلي بالتكلف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه الفطر التي لم تغير، والعقول المستقيمة، فلا معقول لديهم ولا منقول.

وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسوله، والمعقول لذوي الأبواب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف من المسائل والدلائل وتحققها، ونسأله الهداية لأقوم الطرق وأهداها.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف القسمين وأجلها، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت حيث قال:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو صاف الكمال لربنا الرحمن أي من توحيدهم الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إثبات كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية والنصوص النبوية، ثم شرع

يفصل شيئاً منها، فقال:

كملوه سبحانه فوق السموات العلى بل فوق كل مكان
فهو العلي بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا بيسان
وهو الذي حقا على العرش استوى قد قام بالتدبير لئلا يكون
أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات، ومباينته لها،
فقد دلَّ عليها مع النصوص الكثيرة العقل الصريح، فإنه عليّ بذاته
فوق جميع مخلوقاته، ويستحيل أن لا يكون عليّاً، فإنه يستحيل
ويمتنع أن يكون هو نفس المخلوقات، ويمتنع أيضاً أن يكون حالاً
فيها، فتعين أن يكون فوقها مبايناً لها.

وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل صريحاً،
قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه/ ٥]. ومثل الإمام
مالك رحمه الله عن كيفية الاستواء، فقال: «الاستواء معلوم،
والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه (أي عن الكيفية)
بدعة». فكما أنه ثبت لله صفاته على الوجه اللائق بجلاله وعظمته،
فالاستواء من جملة أوصافه الفعلية، فاستوى على العرش، واحتوى
على جميع الملك، يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي،
فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يوجد شيء إلا بنشئته. قال
تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه/ ٥]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يَدْبِرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس/ ١٣].

حي مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحسان

أي هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، لا
تأخذه سنة ولا نوم، قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾
[الفرقان/ ٥٨].

وهو المريد القادر أي كامل الإرادة والقدرة، وجمع بينهما
لأن جميع الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء والنزول إلى السماء
الدنيا والمجيء يوم القيامة ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه: كالإحياء
والإماتة والخلق، وجميع أنواع التدبير، وجميع الأقوال تصدر عن
القدرة والإرادة، فما وُجدَ علم أن الله أرادَه وخلقَه، ومالم يوجد
علم أن الله لم يُردَه، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، وإذا
كان كامل القدرة والإرادة علم أنه ما في الكون من حول وقوة إلا
مُستفادَةٌ وثابعة لحول الله وقوته.

متكلم أي لم يزل ولا يزال موصوفاً بالكلام، فيكلم بما أراد،
كيف أراد، وحيث أراد.

ذو رحمة وحنان أي قد انصف بالرحمة، وعم خلقه بالنعيم
والإحسان، والبر والحنان، واللطف والامتنان.

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تضرير ذي البرهان
قانتظر إلى تفسيره بتدبير	وتبصر وتعقل لمعاني

وانظر إلى منافيه من أنواع معدودة لخالقنا العظيم الشان
قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾ (الحديد/ ٢٨). وقال النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه:
«أنت الأول فليس قبلك شيء»، وأنت الآخر فليس بعدك شيء،
وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».
الحديث (١).

ولهذا فسر المصنف هذه الأسماء الأربعة المباركة بما فسرهما
به النبي ﷺ وقال: «وذا تفسير ذي البرهان» أي تفسير الرسول
الذي كلامه أعلى مراتب البيان والإيضاح بعد كلام الله تعالى، فإنه
مستحل على إثبات معانيها ونفي ما يتناقضها ويضادها، وحث
المصنف على تدبر هذه الأسماء الأربعة وتعقل معانيها، وأنها
مشملة على أمور عظيمة من أنواع معرفة الله تعالى، التي بها تخيا
القلوب وتستير الأفئدة، فلنناقش كلام المؤلف في «سفر الهجرتين» (٢)
على هذه الأسماء الأربعة فإن فيه الشفاء والكفاية.

قال رحمه الله على كلام شيخ الإسلام الأنصاري في قوله:
الثانية الرجوع إلى فضل الله، ومطالعة سببه الأسباب والوسائل،
فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأعمال والأقوال الشريفة والمقامات
العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) ص ٤٢ نشر دار ابن القيم.

وموالاته، وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله، كما أنه الأول في
كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كل شيء،
فمن عبده باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن
انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف
الجامع لمتمفرقات التعبد ظاهراً وباطناً، فعبوديته باسمه الأول
تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف والالتفات إليها،
وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ
بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل
وجوده. وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدم محض، وقد أتى
عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فمنه سبحانه الإعداد،
ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد
فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه «الأول»
على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة، وعبوديته
باسمه «الآخر» تقتضي أيضاً عدم ركوته ووثوقه بالأسباب والوقوف
بمعها، فإنها تعدل لا محالة، وتنفضي بالآخريّة، ويبقى الدائم
الباقى بعدها. فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر
سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالتعلق به حقيق
أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يقضى به،
كما نظر العارف إليه يسبق الأوليّة، حيث كان قبل الأسباب كلها،
فكذلك نظره إليه ببقاء الآخريّة، حيث يبقى بعد الأسباب كلها،
فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

والمقصود أن التعبد باسمه «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده، وصعداً يصعد إليه في حوائجه، وعلجاً يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه الظاهر، استقامت له عبوديته، وضار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبد باسمه «الباطن» فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكُلِّ اللسان عن وصفه، ثم تضلُّم الإشارة إليه، وتجفُّ العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرت التشبه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبرة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف، فَمَنْ رَزَقَ هذا فَهَمَّ معنى اسمه «الباطن»، وضح له التعبد به. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتب فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لبث الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس مافي الدهن بمافي الخارج، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقاً يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه

بالعالم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ ذَلِكِ أَحَاظُ النَّاسِ﴾ [الإسراء/ ٦٠]. وقال: ﴿وَأَنَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَاسِطٌ﴾ [البروج/ ٢٠].

ولهذا يفرق سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو، الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [اسراء/ ٢٢] وقال: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَمَتَّ وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ وَسْيعُ الْعِلْمِ﴾ [البقرة/ ١١٥]. وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص بين عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦] فهذا قرب من داعيه، وقال: ﴿إِن رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأمرأ/ ٥٦] فذكر الخير وهو قريب، عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيداناً بقربه تعالى من المحسنين،

فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل^(١). فهذا قرب خاص، غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالكبير، فقال: «أيها الناس ازنعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائياً، إن الذي تدعون سمع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٢). فهذا قريب من داعيه وذاكره، يعني فأني حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خففت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سمع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفتنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلج، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: سبحانه، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه.

ويعذره، لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهراً ليس قوفه شيء، ومن كثف ذهنه وغلط طبعه عن فهم هذا المعنى فليضرب عنه صفيحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبة غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القاذرة ليها، فإن المحب كثيراً ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويقتنى عن غيره، ويرق قلبه، وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللقضي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظن أن في عبته وجوده الخارجي، لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومشواك في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد، وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار، والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية، وإن كان مطابقاً لها، لكن المثال العلمي محله القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج.

فمعرفة هذه الأسماء الأربعة - وهي الأول والآخِر والظاهر والباطن - هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخرته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخرته بقاءه بعد كل شيء، وظاهره سبحانه فوقه وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلوه وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، ويطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخرته بالقبَل والبَعْد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخرته، فإحاطة أوليته وآخرته بالأوائل والأواخر، وإحاطة ظاهره وباطنه بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل آخر شيء بآخرته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر،

والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخرته، والآخِر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

هذا آخر كلام المصنف رحمه الله، وهو في غاية النفاسة في هذا الموضع، وكرر العبارات المتنوعة لأجل أن يفهم المعنى فهمًا صحيحًا تامًا، لأن هذا الموضع من أهم المواضع وأعظمها حاجة.

وهو العلمي فكل أنواع العلم - سواء ثابتة له بلا نكران - يعني أن الله تعالى هو العلمي، الذي له جميع أنواع العلوم ثابتة شرعًا وعقلًا، بلا إنكار ولا تعطيل لشيء منها، فله علو الذات لأنه فوق المخلوقات، فوق العرش العظيم، قد باين العالم العلوي والسفلي، وله علو القدر، وهو علو صفاته وعظمته، بحيث كانت صفاته عالية عظيمة، لا يمانلها ولا يقاربها صفة شيء من المخلوقات، بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا علمًا ببعض صفاته. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه/ ١١١]. وله علو الفهر، فعلا على جميع المخلوقات وفهرها، فكلها تحت قبضته، ونواصيها بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، ولو اجتمعوا على إيجاد فعل أو حركة لم يُردّها الله لم يقدرُوا على ذلك، وذلك لكمال اقتداره وعظمته، وشدة افتقار المخلوقات إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التعظيم لا يحصى من إنسان يريد أن الله تعالى عظيم، له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، بحيث لا يقدر إنسان ولا مخلوق أن يحصي الثناء على الله بعظمته ومعاني التعظيم نوعان:

أحدهما: أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال الذي وصف به أكمله وأعظمه وأجله، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة، حتى أن من عظمته أن السموات والأرض في كف الرحمن كالخردلة في يد المخلوق، كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر/ ١٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْلِفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ آتَاكَمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا عَفِيفًا﴾ [فاطر/ ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [تكاثر/ ١]. ﴿السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ قَبْلِهَا وَاللَّيْلُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى/ ٤ - ٥]. وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «الكبرياء ودائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئاً منهما عذبتُهُ»^(١). وقال النبي ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

عند»^(١). فله تعالى الكبرياء والعظمة الوصفان اللذان لا يفادر قدرهما، ولا يبلغ كتتهما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد التعظيم من الخلق غيره تعالى، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك يبذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يُطاع فلا يعصى ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، ومن تعظيمه وإجلاله أن لا يُعترض على شيء مما خلقه أو شرعه، بل يُخضع لحكمته، وينقاد لحكمه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا	ل له محققة بسلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا	وجمال سائر هذه الأكوان
من بعض آثار الجميل قربها	أولى وأجدر عند ذي العرفان
فجمالها بالذات والأوصاف والد	أفعال والأسماء بالبرهان
لا شيء يشبه ذاته وصفاته	سيحانه عن إفك ذي بهتان

يعني أن الله تعالى هو الجليل الذي له جميع أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة لله محققة، لا يفوته منها

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

وصف جلال وكمال. وكذلك هو الجميل بالذات والأوصاف والأفعال والأسماء. فإن ذاته تعالى لها من الجمال ما لا يمكن مخلوقاً أن يعبر عن بعض جماله، حتى أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم الذي لا يوصف، واللذات التي لا يقادر قدرها، والأفراح والسرور، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لو تدوم لهم هذه الحال، واكتسوا من جماله جمالاً إلى جماليهم، وكانت قلوبهم دائماً في شوق ونزوع إلى رؤية ربهم، حتى أنهم يفرجون يوم المزيد فرحاً تكاد تغمر له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه، لأن أسمائه كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف/ ١٨٠]. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ لَّهُ سَمِيًّا﴾ [مريم/ ٦٥]. ولهذا لا يسمى باسم محض لمدح وغيره، بل لا يسمى إلا بالأسماء الدالة على غاية المدح والحمد.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال، وتعود ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعظمها وأكثرها تعلّقاً، خصوصاً أوصاف الرحمة والبر والإحسان والجود والكرم. وكذلك أفعاله تعالى كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر ويثنى عليه بها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها الحكمة والحمد، فليس في أفعاله عيب ولا سفه ولا ظلم، بل كلها هدى ورحمة وعدل.

ورشد. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود/ ٥٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذِكْرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص/ ٢٧].

ثم استدلل المصنف رحمه الله بدليل عقلي على جمال الباري. فقال: كيف لا، أي كيف لا يكون جميلاً والحال أن جمال جميع الأكوان من بعض آثار الجميل، فربما الذي أعطاهما الجمال أحق وأجدر منها بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، مما تبهر له العقول، وتحير له الأفئدة، خصوصاً ما يعطى أهل الجنة في الجنة من الجمال، لهم ولنساءهم اللاتي لو يدا كنن واحدة منهن إلى الدنيا لطمس نوره نور الشمس. كما تلمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنّ عليهم بذلك الكمال أحق منهم به؟

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [التحل/ ٦٠] أي كل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصاً فإن معطيه أحق به من الشعطي، بما لا نسبة له بينه وبينهم إلا كنية ذواتهم إلى ذاته، وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والعلم والقدرة والجمال والكمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «إلا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١). وقال: «حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت أكبادنا».

(١) رواه مسلم عن عائشة.

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

ولهذا قال المؤلف: «لا شيء يشبه ذاته وصفاته». سبحانه أي تنزه وتقدس، عن إفك ذي بهتان أي كذب المفتريين الذين لم يقدروا الله حق قدره، ولا عظموه حتى عظمت، حين عطلوا أوصافه التي نطقت بها الكتب، وصرحت بها الرسل، وحسيهم خسارة ومقتاً أن حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بخصبته.

وجمّع المؤلف بين الجليل والجميل، لأن تمام التعبد لله هو التعبد له بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث تسبح القلوب في رياض معرفته وميادين جماله، وتبتهج بما يحصل لها من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعظيم فشان الوصف أعظم شأن يعني أن معنى اسمه «المجيد» أنه عظيم الصفات واسمها، فكل وصف من أوصافه فشأنه عظيم، فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم التي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه.

قال المصنف في «بدائع الفوائد»^(٢): «فإن المجيد من اتصف

(١) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

(٢) ج ١ ص ١٦٠ نشر دار الكتاب.

بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْخُ والعَفَّارُ، وأمجد الناقة علفاً، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علمناه ﷺ (يعني قوله: «اللهم صل على محمد، وبارك على محمد، إنك حميد مجيد»)^(١) لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي^(٢): «الْظُّوُّ بِإِذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»^(٣). فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقفاً عند المستول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله. انتهى كلامه.

(١) متفق عليه من حديث كعب بن عجرة وأبي حنيفة الساعدي.

(٢) عن أنس.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. وهو حديث صحيح.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما
ولكل صوت منه سمع حاضر
والسمع منه واسع الأصوات لا
يخفى عليه بيدها واليدان
وهو البصير يرى ديبب النملة السوداء
وتحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها
ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها
ويرى كذاك ثقلب الأجفان

هذه الآيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع البصير»، وكثيراً ما يقرن الله بينهما، كمثل قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء/ ١٣٤]. فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلانياتها، حتى كأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تغلظه اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية كلها عنده سواء. قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَسْمَعُكَ مِنْ أَمْرٍ أَوْ قَوْلٍ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْبُلٍ وَسَاتِرٍ بِالنَّارِ﴾ [الرعد/ ١١٠]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة/ ١١]. قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وضع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة، وإنه ليخفي علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾

الآية.

وَسَمِعَهُ تَعَالَى تَوْعَان: أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وإحاطته بها إحاطة تامة. والثاني: سَمِعَ الإجابة منه للسائلين والعابدين والمنضرعين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قول العبد في صلاته: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله لمن حمده وأثنى عليه وعيده، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَعَدَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْتَيْسَارًا وَاسْتَحَقَّ لِي رَبِّي سَمِيعٌ دَعَايَ﴾ [إبراهيم/ ١٢٩].

ثم قال المصنف: «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المُبْصِرَاتِ في أقطار الأرض والسفوات، حتى أخفى ما يكون منها، فيرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الظاهرة والباطنة، حتى أنه يرى سريان القوت في أعضائها الصغار جدًّا، ويرى سريان المياه في الأشجار وأغصانها وعروقها وجميع النباتات، ويرى نياط عروق النملة والبعوضة وأصغر من ذلك. فتبارك من تنبهر العقول عند التأمل لبعض صفاته المقدسة، وتشهد البصائر كماله وعظمته ولطفه، وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب والخفي والجلي، ويرى تعالى خيانات العيون بلحظها، أي حين يلحظ العبد منظرًا يخفيه على جليسه، قاله تعالى يراه في تلك الحالة التي يحرص على إخفاء ملاحظته عن كل أحد، ويرى ثقلب الأجفان حين يقلبها الناظر من آدمي أو ملك أو جني أو حيوان،

وَحِينَ يَطْبِقُهَا وَيُفْتَحُهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَتْلُو تَقْوَمُ﴾ ﴿١٧٧﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٧٨﴾ [الشعراء/ ٢١٨ - ٢١٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَغْنَى وَمَا خَفَى السُّوءِ﴾ ﴿١٧٩﴾ [غافر/ ٢١٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ [البروج/ ٢٠٠] أي مطلع، ومحيط علمه بجميع المعلومات، وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المرئيات ما تبصره وما لا تبصره.

وعلمها، ما وجد منها ومالم يوجد مالم تنقش الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، بحيث لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والباطن والجلي والخفي. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبه/ ١١٥) وفي غيرها، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الحشر/ ٢٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْدُرُ بِكُمُ السَّاعَةَ وَمَنْزِلَ الْغَيْثِ وَمِمَّا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (القصص/ ١٣٤)، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا نَبْأٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الانعام/ ٥٩)، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَخَفَى﴾ (طه/ ٧)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (التغابن/ ٢٤)، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَرُونْ سُدُورَهُمْ لَيَسْتَكْفِرُوا مِنْهُ لَئِنْ جَاءَ أَحَدٌ بِبَشِيرٍ يُقَالُ إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ يَكْتُمُونَ مَا فِي بُطُونِهِمْ خِشْيَةً مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى رَبِّكَ شَيْءٌ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (احد/ ٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (ال عمران/ ١٤)، وقال تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبا/ ١٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرُدُّ شَيْءُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُ بِهَا﴾ (نصت/ ٤٧) إلى غير ذلك من النصوص الدالة على شمول علم الله لكل شيء، وأنه لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن، ولا بعيد ولا قريب، ولا يغفل عنه ولا يشاء، ولا يعرض لعلمه

ما يعرض لعلم غيره، فإن علم المخلوق يعرض له عدم الإحاطة، ويعرض له النسيان لما علمه. والله تعالى كما قال المصنف: فهو المحيط وليس ذا نسيان، كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (طه/ ٥٢).

وقال الخضر - الذي قد علمه الله من لدنه علمًا كثيرًا - وخضه من علم الباطن بمائيس لموسى ولا لغيره - لموسى كليم الرحمن أعلم الخلق على الإطلاق بعد محمد وإبراهيم عليهم السلام، لما لقي الخضر ليتعلم منه، مؤثرًا على البحر، ففقر عصفور من البحر بمناقرة، فقال الخضر لموسى: أما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر^(١).

ولما ذكر المصنف رحمه الله إحاطة علم الله بجميع الأكوان، ذكر إحاطته بجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلية، فقال: وهو العليم بما يكون غدا، أي المستقبلات، وما قد كان، أي ماضي من جميع الأمور الماضية، والموجود في ذا الآن أي الحاضرات كلها، دقيقها وجليلها، قد أحاط الله بها علمًا. ولما خلق الله القلم قبل أن يخلق السنوات والأرض بخمسين ألف سنة قال له: اكتب، قال ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة. ولهذا يجمع الله

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

كثيرًا بين علمه المحيط وكتابه المحيطة بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج/ ٧٠)، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من الأمور الماضية، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي من الأمور المستقبلية، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة/ ٢٥٥). وقال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ قال يلهيها عند ربّي في كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (طه/ ٥١-٥٢).

وحين تستكمل خلقة آدمي يرسل الله إليه الملك، ويأمره بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف، وإذا مات الخلق وتفرقوا في جهات الأرض وقلوات القفار ولجج البحار وبطون الغيور والسباع وصاروا رفاثًا، واضمحلت أوصالهم، وتلاشت أعضاؤهم فعلم الله محيط بهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ بِهِمْ وَعَدْنَا كِتَابَ حَفِظَ﴾ (ق/ ٤٤). فإذا نفخ في الصور أرسل الله كل روح إلى جسدها الذي كانت تعمده، ثم يوقفهم على كل ما عملوا من خير وشر، أحصاه الله ونسوه، فيعلم مقادير أعمالهم، ومقادير ثوابها وعقابها، ثم إذا استقر أهل الجنة بالجنة، وأهل النار بالنار، وجرت عليهم أحكام الجزاء، فعلم الله محيط بتفاصيل أحوالهم، وما هم فيه من النعيم والعذاب، فبارك الله رب العالمين، ما أعظمه وأجله، وما أوسع صفاته وأكملها وأجملها.

وقول المؤلف: وكذلك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان، أي وكذلك يعلم تعالى الأمور التي لم تكن ولا تكون، من الممكنات التي لم يوجد لها الباري ولن يوجد لها، يعلم لو وقعت كيف تكون، وكيف يشأ عنها. مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَرَّأُوا لِمَا نُفِوا عَنْهُ﴾ [الأنعام/ ٢٨] فَرَدُّهُمْ لا يكون، ولو كان على الفرض والتقدير لعادوا لما نفوا عنه، فإن أخلاقهم التي اكتسبوا فيها الشر معهم وقد عمرهم الله عمراً يتذكر فيه عن تذكر، وجاءهم النذير، فسألهم هذا لا محل له، وهم كذبة أيضاً في هذا السؤال، لم يكن قصدهم إلا دفع العذاب الذي حتم عليهم، فقالوا ما قالوا. ومثل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةُ وكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَيَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام/ ١١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَكْفُرُ بِمَا كُنْتُ مَلَكًا لَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء/ ٩٥]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها الإخبار عن أمر لم يكن أنه لو كان لكان كذا وكذا.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع أو كان مفروضاً مدى الأزمان
ملاً الوجود جميعه ونظيره من غير ما عد ولا حبان
هو أهله سبحانه ومحمد كل المحامد وصف ذي الإحسان
عقد المصنف رحمه الله لهذا الاسم المبارك هذا الفصل على

خديته، لشدة الاعتناء به وسعته وعظمته، فذكر أنه الحميد من وجهين:

أحدهما: من جهة حمد المخلوقات له، وذلك أنه كل حمد وقع من أهل السموات والأرض الأولين والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا وفي الآخرة، وكل حمد لم يقع من الخلق، بل كان مفروضاً ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان وتوالى الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، وبملا نظير الوجود من غير عد ولا حبان، فالحمد سبحانه أهله ومستحقه من وجوه كثيرة. منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدنية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع المكروهات إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، ويشنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

والوجه الثاني من جهة أن المحامد والمدائح والنعوت الجليلة الجميلة أوصاف لله تعالى، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله تعالى الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، لأنها كلها مدائح وكمالات، وله الحمد لأفعاله، لأنها دائرة بين الفضل والإحسان، وبين العدل والحكمة.

قال المصنف رحمه الله تعالى في كتابه «سفر الهجرتين وباب

السعادتين^(١) لما ذكر الحكمة والقدرة:

فصل

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظاميهما وجامع شملهما، وتحقيقه وإثباته على وجه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا مسح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَجْرٌ يَحْتَسِبُ﴾. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «أربنا ولك الحمد ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»^(٢)، فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السماء والأرض، ويملا ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده، وذلك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته، وملء ما تخلقته بعد ذلك.

(١) ص ٢٠٢ نشر دار ابن القيم.

(٢) رواه مسلم.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءاً بحمذك وإن لم يكن موجوداً، ولكن يقال: المعنى الأول أولى، لأن قوله ما شئت من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاء، وما شاء كان، والمشية متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمل، لكنه إذا شاء كونه، فله الحمد ملؤه، فالمشية راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكون شيئاً موجوداً يملؤه حمده. وأيضاً فإن قوله من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاء سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها، ولو أريد تقدير خلقه لقل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضاً فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملؤه الحمد، بل قال: ما شئت، والعبد قد حمد حمداً أخبر به وأنشأه، ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه، وما يشاء بعد ذلك، وأيضاً فقوله: وملء ما شئت من شيء بعد يقتضي إثبات مشية تتعلق بشيء بعد ذلك.

وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشية بملء المقدر، وأيضاً فإذا قيل: ما شئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئاً لما هو موجود، يشاءه الرب دائماً، ولا ريب أن له الحمد دائماً في الدنيا والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود، فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير مالا نهاية له، كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتاج إلى تعليقه بالمشية، بل قيل: ملء مالا يتناهي، فأما ما يشاءه الرب

فلا يكون إلا موجودًا مقدورًا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها، فهذا كله مما يشاؤه بعد. وأيضًا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته، وإما ظاهرة بمخلوقاته، فأما المعلوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة، فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمن الثناء عليه يكتماله القائم بذاته، والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما مالا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مائلاً له جعله مائلاً لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون جمده يملأ السموات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: على جهة التمثيل، أي لو كان أجساماً لملأ السموات والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالء والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماءً، وامتلات الجفنة طعاماً، فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلات الدار رجالاً، وامتلات المدينة خيلاً ورجالاً، فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطوراً فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمداً وذمماً لفلان فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف: أهل الجنة من امتلات مسامعه من ثناء الناس عليه،

وأهل النار من امتلات مسامعه من ذم الناس له. وقال عمر بن الخطاب في عبدالله بن مسعود: كُنْتُ مُلِيَّ عَلَماً. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علماً، ويقال: صبت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق، وخبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلاً قلبه رعباً، وهذا أكثر من أن يشوعب شواهد، وهو حقيقة في باب، وجعل المملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل، ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك. وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم سيئ، وأوصافه كلها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، منوعت بنعوت الجلال، منزّه عن الشبيه والمثال، ومنزّه عما يضاد صفات كماله، فمتزّه عن الموت المضاد للحياة، وعن الشئ والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزّه عن أصداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة الشامة، منزّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزّه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزّه عن العيب، موصوف بالسمع والبصر منزّه عن

أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفرقة منزّه عن
أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام، منزّه عما يضاده بوجه من
الوجوه، ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود،
كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد
كله واجب لذاته، فلا يكون إلا محموداً، كما لا يكون إلا إلهياً
وربّاً وقادراً.

فإذا قيل الحمد كله لله فهنا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، ويكل ما يحمد به
المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد إذاً، كما يحمد أنبياءه
ورسله وأتباعهم، فذاك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود
بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده،
فهو المحمود أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وهذا كما أنه بكل شيء
عليم، وقد علّم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه، وفي
الدعاء المأثور: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، ويبدك
الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ
بك من الشر كله»^(١). وهو سبحانه له الملك، وقد آتى من المملكة
بعض خلقه، وله الحمد وقد آتى من الحمد ما شاء، وكما أن ملك
المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضًا داخل في حمده، فما من
محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٦/٥ عن حذيفة بن اليمان.

بالذات والأولية أيضًا، وإذا قال: اللهم لك الحمد فالمراد به
أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال لك الحمد كله، أي الحمد التام
الكامل، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شراكة. والتحقيق أن له
الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكمالها، وهذا من
خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء،
أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل
شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له، وأتباع الرسل
يشتهون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنهم يقولون: إنه خالق
كل شيء وربّه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء
البتة، فله الملك كله.

إلى أن قال:

فصل

والمقصود ببيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدث
من إحسان ونعمة وامتحان وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية،
والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حمد المدح وحمد الشكر.
أما حمد المدح فانه محمود على كل ما خلق، إذ هو رب
العالمين، والحمد لله رب العالمين، وأما حمد الشكر فلأن ذلك
كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترنت بواجبه، والإحسان والنعمة إذا
اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنت بالصبر

كان نعمة، والطاعة من أجل نعمة، وأما المعصية فإذا اقترنت
بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب
عليها من الآثار المحموده والغايات المنظورية ما هو نعمة أيضاً،
وإن كان سببها مسخوطاً مغموراً للرب سبحانه، ولكنه يحب ما
يترتب عليه من التوبة والاستغفار.

إلى أن قال: والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان،
فكلما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله
الملك والقدره مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات
عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا
يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبه عباده على أن مصدر
خلقهم وأمرهم عن حمده، فهو محمود على ما خلقه وأمر به حمد
شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح، ويجمعها التبارك، فتبارك الله
يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٤]. فالحمد أوسع
الصفات وأعم السدائج، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة،
والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته، وتفصيل الأمر
والنهي واسعة جداً، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد،
وصفاته حمده، وأفعاله حمده، وأحكامه حمده، وعمله حمده،
وانتقامه من أعدائه حمده، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمده،
والخلق والأمر إنما قام بأمره يحمده، ووجد يحمده، وظهر
يحمده، وكان الغاية هي حمده، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره

وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء يحمده، وسريان
حمده في الموجودات، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالابصار
والبصائر.

ثم ذكر الطرق الدالة على سريان حمده وشموله بتدبير أسمائه
وصفاته وأفعاله ونعمته، وأطال في ذلك، جزاء الله عن الإسلام
والمسلمين خيراً.

فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكليم الخطاب وقبله الأيوان
كلماته جلت عن الإحصاء والك
لوا أن أشجار البلاد جميعها إلا
قلام تكتبها بكل يسان
والبحر تلقى فيه سبعة أبحر
لكتساب الكلمات كل زمان
نضدت ولم تنفذ بها كلماته
ليس الكلام من الإله بسان
يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا
يزال بصفة الكلام موصوفاً، وبالبهر والإحسان معروفاً، وهو الذي
يتكلم بالكلام القدرى الذي يوجد به الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا
قَوْلُنَا إِشْرَءٌ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل/ ٤٠]، ويتكلم
بكلامه الشرعى الدينى، الذى منه الكتب التى أنزلها الله على
رسله، فهو الذى يتكلم بها حقاً، ونزل بها جبريل من عنده
صدقاً، ليست بمخلوقة بل هي من جملة صفاته تعالى.

وتكليمه لعباده نوعان: نوع بلا واسطة، كما كلم موسى بن عمران، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء/ ١٦٤]، وكما كلم الأيوين آدم وحواء ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف/ ٢٢]، وكما نادى محمدًا ﷺ وخاطبه حين أسرى به، وكما يخاطب الله أهل الموقف، وأهل الجنة في الجنة حين يرونه، ويكلمهم ويكلمونه.

النوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة، إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولاً يكلمهم من أمره بما شاء، وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَٰهًا وَحِيًّا أَوْ يَكُنِيَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَوْ يَكُنِيَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَوْ يَكُنِيَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَوْ يَكُنِيَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ [النوري/ ٥١].

واعلم أن صفة الكلام لله تعالى من صفاته الذاتية، من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية، حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيتته، فإذا كان معلوماً أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذة المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلماً إذا شاء، لأن الكلام من أجل صفات الكمال، التي يستحيل على الله أن لا يوصف بها، وكلماته تعالى غير متناهية، فلا تنفد ولا تبيد، فلو أن أشجار الأرض جميعها من عمرانها وقفارها وبحارها أقالم، والبحر تمدد من بعده سبعة أنهر مداد، فكتب بذلك الأقالم بذلك المداد لتكثرت الأقالم ونفذ المداد، وكلام الله لا يفنى ولا ينقد، وذلك أن المخلوق متناه، له غاية وحد، وصفات الله ليس لها غاية ولا حد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسُنُ بَرِّ﴾ [النجم/ ٤٢]، وقال

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان/ ٢٧].

وهذا كله من باب تقريب المعنى العظيم الواسع، الذي لا تدركه الأذهان إليها بهذا المثال الذي يبهز العقول، ولهذا قال المؤلف: ليس الكلام من الآله بفاني. ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق من جملة المخلوقات التي تنتهي، وكيف يكون الوصف المضاف إلى الله تعالى مخلوقاً، يلزم منه أن يكون كلاماً للخلق، فإذا كان علم الله وقدرته ونحو ذلك من أوصافه يستحيل أن تقوم بغير الله وأن تكون مخلوقة، فكلامه كذلك.

وهو القدير فليس بمعجزه إذا ما رام شيئاً قط ذو سلطان

وهو القوي له القوى جميعاً تعالى رب ذي الأكوان

يعني أنه تعالى القدير كامل القدرة، فكلمنا أرادته فعله من غير عجز ولا معارض له ولا مضاد، فإذا أراد إيجاد شيء أو إعدامه فلو اجتمعت الخليقة كلها على معارضة في شيء من ذلك لم يكن لهم قدرة على معارضته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس أنه قال لابن عباس: «واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن يضفوك بشيء (أي قليل أو كثير) لم يضفوك إلا بشيء قدره الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضفوك بشيء لم يضفوك إلا بشيء قدره الله عليك». وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود/ ٥٦]، وهو القوي الذي له

القوة كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات/ ٢٥٨]، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فما بالخلق من قوة ظاهرة أو باطنة إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [إني عنده أباد، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس/ ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا﴾ [فصلت/ ١٥]، فمن قوته وقدرته أنه خلق السموات العظيمة، والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق، ثم يميتهم ثم يحييهم بعدما يفرقهم البلى، بل خلفهم وبعثهم عليه كنفس واحدة: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُمُ إِلَّا مَكِّنَّسٍ وَجِدْ﴾ [الفجر/ ٢٨]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عِلَّاهُ﴾ [الروم/ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر/ ٥٧]، ومن قدرته أنه يحيي الأرض الهامدة اليابسة بعد موتها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْك تَرَى الْأَرْضَ خَاسِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَتَنَّى الْمُوقِفُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت/ ٣٨]،

ومن آثار قدرته ما فعله بالأمم المكذابين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنهم لم ينف عنهم كبدهم ولا مكرهم ولا أموالهم وأولادهم وجنودهم وحصونهم من عذاب الله شيئاً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ ثُوج وَعَصَا وَقَوْمِ الْفَرَجِ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الشعرا/ ٧٠]، وقال تعالى في سورة الشعراء بعد كل قصة يذكر فيها نجاة الرسل وأتباعهم وإهلاك من كذبهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي على كمال رحمته التي منها إنجاء المؤمنين، وعلى كمال عزته وقدرته حيث أباد المكذبين، ولهذا قال: وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

ومن تمام قدرته وشمولها أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً، وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، من غير منافاة ولا مناقضة، فإن الأعمال يضيفها الله إليهم وينسبها لهم، وهم الفاعلون لها، وهذا معروف عقلاً وشرعاً وحساً، والله خالق قدرتهم ومشيتهم التي لا يوجد فعل إلا بهما، وخالق السبب التام، خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات/ ٩٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَنَ شَأْنَكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ [البقرة/ ٢٨-٢٩]، فأنبت لهم مشيئة وفعلاً، وذكر أن مشيتهم تابعة لمشيئته وإرادته.

ومن آثار قدرته ورحمته نصره لأوليائه على قلة عددهم وعُددهم بالنسبة إلى أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ حُدَّنَا لَهُمُ الْقَلِيلُونَ﴾ [الصافات/ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْصَرُّ رُسُلَنَا وَاللَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر/ ٥١]، ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدته لأهل النار وأهل الجنة من أنواع

بشيء من الأشياء، بل هم الفقراء إليه في جميع أمورهم، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره طرفة عين.

ومن كمال غناه أن خزائن السموات والأرض بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والآنفاس، وأن يديه سبحانه الليل والنهار، أرايت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفيض ما في يمينه.

ومن كمال غناه أن يدعو عباده إلى سؤاله، ويعدهم بالأجابة، ويؤتيهم من كل ما سألوه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم/ ١٢٤] ﴿وَمَا يَكْفِيكُمْ مِنْ يَحْمَدُكُمْ اللَّهُ﴾ [النحل/ ٥٣].

ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض وأهل الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، فسأله كل واحد منهم ما بلغت أمنيته، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً.

ومن كمال غناه وسعة عطاياء ما يسطه على أهل دار كرامته من اللذات المتابعات والشهوات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهو الغني بذاته، المعني لجميع مخلوقاته.

ومن غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا عويثاً، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [زبور/ ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَقْنَىٰ وَاقْنَىٰ﴾ [النجم/ ٤٨]، تبارك وتعالى وتقدس.

وهو الحكيم وذلك من أوصافه

حكم وأحكام فكل منهما

والحكم شرعي وكوني ولا

بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً

لن يخلو المزيوب من إحدهما

لكنما الشرعي محبوب له

هو أمره الديني جاءت رسله

لكنما الكوني فهو قضاءؤه

هو كله حق وعدل ذو رضى

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ

فإنه يرضى بالقضاء ويسخط الـ

فقضاءؤه صفة به قامت وما

والكون محبوب ومقبوض له

هذا البيان يزيل لبساً طالما

ويحل ما قد عقدوا بأصولهم

من وافق الكوني وافق سخطه

نوعان أيضاً فما هما عدمان

نوعان أيضاً ثابتا البرهان

يتلازمان وما هما بيان

والعكس أيضاً ثم يجتمعان

أو منهما بل ليس يتبيان

أبداً ولن يخلو من الأكوان

بقيامه فني سائر الأزمان

في خلقه بالعدل والإحسان

والشأن في المقضي كل الشأن

مقضي حين يكون بالعصيان

مقضي ما الأمران متحدان

المقضي إلا جنعة الإنسان

وكلاهما بمشيئة الرحمن

هلكت عليه الناس كل زمان

ويحوثهم قافهمه فهم بيان

أولم يوافق طباغة الرحمن

فلسذاك لا يمدوه ذم أو فسوا . ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يمدوه أجر . عز بل له عند الصواب اثنان
أطال المؤلف رحمه الله الكلام على هذا الاسم المبارك «الحكيم»
لاقتضاء الحال للاطالة والبسط، فإنه كما قال في آخر هذا الكلام:
«هذا البيان يزيل لبساً إلى آخر ما ذكره» فذكر أن الحكيم من
أوصاف الله تعالى نوعان: أحدهما حكم، والثاني: أحكام، وكل
واحد منهما نوعان، فتصير الأقسام أربعة: حكم قدري كوني،
وحكم شرعي ديني، وحكمة في خلقه، وحكمة في أمره. فذكر
أن الحكم القدري والحكم الشرعي لا يتلازمان، أي لا يلزم من
وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدم الآخر، كما هو شأن
كل متلازمين، بل قد يوجد الشرعي دون القدري، وقد يوجد
القدري دون الشرعي، وقد يجتمعان، ولكنهما لا يرتفعان، أي لا
يفقدان كلاهما، ولهذا قال: لن يخلو المربوب أي المخلوق،
وهذا شامل للمخلوقات كلها، أي لن يخلو شيء من المخلوقات
من أحد الحكمين، أو منهما، بل ليس يتفقان أي لا يعدمان،
فيصير المربوب خالياً منهما، فإن هذا محال.

وبيان ذلك أن الحكم الشرعي هو الحكم الذي تعلقت به
محبة الله تعالى، وهو الحكم الذي شرعه وحكم به على السنة
رسله، ودعوا إليه العباد، فقام به من استجاب لهم، وإذا وجد
الحكم الشرعي فثلاً فإنه لا يخلو من الأكوان، أي لا يخلو من
الحكم القدري، وذلك أن الإيمان والطاعات الصادرة من المؤمنين

بقضاء الله وقدره وتوقيه، فإذا وجدت الطاعات وجد الحكم
معاً. وإذا وجد الكفر والفسوق والمعاصي وجد الحكم القدري،
لكونها واقعة بقضاء وقدره، دون الحكم الشرعي، لعدم تعلق الأمر
والمحبة بها، وإذا كان الأمر بالخير والإيمان والطاعة موجوداً،
ولم يقم به من أمر به، كان الحكم الشرعي موجوداً لوجود الأمر،
دون القدري فإنه لو وجد لحصلت، فإنه ما شاء الله كان، فالحكم
الكوني هو قضاءه على خلقه بالعدل والإحسان، أي لأن أفعاله
تعالى لا تخلو من هذين الأمرين، إما إحسان ونعم، وإما عدل،
وهو تقديره ما يقدره من وقوع الشر من أهل الشر، ومن عقوباتهم
في الدنيا والآخرة، فإنه عدل يحمد عليه، لموافقته الحكمة،
وروضه العقوبة موضعها.

وذكر المصنف الفرق بين القضاء والمقضي، وأن القضاء وصف
لله تعالى وفعله الذي يتعين الرضاء به، لكونه غير خارج عن العدل
والفضل، وأن المقضي صنعة الإنسان وفعله، وذلك ينقسم إلى
قسمين محمود ومذموم، فيرضى بالمحمود من المقضي، كالطاعات
والإيمان الصادر من أهل الخير، ويسخط المذموم من ذلك،
كالمعاصي الواقعة من فاعليها، وذلك كله موافقة لمحبة الله
وكرافته، فإن الله يرضى ويحب من عباده الإيمان والشكر وأنواع
الخير، ويكره منهم الكفر والفسوق والمعاصي. فالكون بالنسبة
إلى الحكم الشرعي ينقسم إلى قسمين: محبوب لله وميغوض له،
وبالنسبة إلى الحكم القدري كله واقع بمشيئة الله وقدرته، ولهذا

قال: وكلاهما بمشيئة الرحمن.

فهذا التفصيل الذي ذكره المصنف ينكشف الأمر ويتضح،
ويزيل لبساً أي اختلاطاً واشتباهاً طالما هلكت عليه الناس منذ
زمان، بسبب اشتباه الحق بالباطل، وعدم تمييز الأمور وتفصيلها،
فإن كثيراً من المتكلمين أضلوا لهم أصولاً فاسدة ينسبونها
عقائد باطلة، كما قرر كثير من أهل التصوف وأهل الكلام أن
الحكم القدري مرادف للحكم الديني، وأن الله يحب كلما قدره
وقضاه، وهذا من أعظم الباطل وأشدّه، فإنه يتضمن التسوية بين
الأبرار والفجار، وبين البر والفجور، ويلزم منه إبطال الشرع
وعذر من ظلم وغصى، لأنه موافق للقضاء والقدر، وهذا تكذيب
لله ولكتبه ورسوله. ولهذا قال المصنف: هذا البيان يزيل لبساً طال
ما هلكت عليه الناس منذ زمان، أي بسبب اختلاط الحق بالباطل،
ويحل ما قد عقدوا من الأغلال، والعقائد الباطلة، بأصولهم التي
بنوها، وبحوثهم التي هي نتائج آرائهم الفاسدة وعقولهم الضعيفة
ومقاصدهم السيئة، فافهمهم فهم بيان، لأنه موضع فهم خطر لا
يكاد يوجد هذا التفصيل بغير كتب المصنف وشيخه شيخ الإسلام
ابن تيمية.

إذا تقرر ما تقدم من أن الأحكام نوعان: أحكام قدرية موافقة
للقضاء والقدر، وإن لم توافق محبة الله، وأحكام دينية موافقة
للمحبة والأمر الديني، وإن لم يوجد معها الحكم القدري، وأنهما
قد يجتمعان أو يتفرقا أحدهما، فمن وافق في فعله وقوله ولبيته

الحكم القدري وحده، بأن لا يكون ما فعله أو قاله أو نواه محبوباً
لله، فإنه لا يخلو إما أن يوافق سخطه أي سخط الله إذا كان ذلك
معصية، وإما أن لا يوافق مرضاة الله، وذلك إذا كان ما فعله أمراً
مباحاً غير طاعة ولا معصية، فلذلك لا يعدوه ذم إذا كان معصية،
أو فوات الأجر إن كان مباحاً، وموافق الديني وهو الذي امتثل ما
أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه بحسب قدرته وإمكانه، لا يعدوه
أجر إن اجتهد فأخطأ الحق، بل له عند الصواب أي إذا اجتهد
فأصاب إثنان أي أجران، كما قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم
فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١). لأن لبته
الحق، وسعى لتحصيله، وذلك عمل صالح، ولكن فاته إدراكه
بغير تضييق منه.

وحاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل أن الحكميم هو من
له الحكم وله الأحكام، وأن الحكم نوعان: حكم كوني شامل
لجميع ما قدره وقضاه وكونه من خير وشر، وحكم ديني مختص
بما يحبه الله ويرضاه، وأن من وجد منه الخير بالفعل، واجتمع في
حقه الحكمان معاً، ومن وجد في حقه الشر بالفعل، انفرد في
حقه الحكم الكوني، لأنه بقضاء وقدر، والله لا يحب الشر والفساد،
ومن توجه إليه الأمر الديني فلم يتقده له، وجد فيه في تلك الحال
الحكم الديني، لأنه وجه إليه، ولم يوجد الحكم القدري، لأنه لم

(١) متفق عليه من حديث عمرو بن العاص.

يتقد له، ولو شاء الله لفعله.

وأن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعل الله يجب الرضاء به من غير تفصيل، لأنه عدل وإحسان لا يخرج عن الحمد والحكمة، والمقضي فعل العبد، وفي الرضاء به تفصيل، فإن كان خيراً وطاعة وإيماناً تعين الرضاء به ومحبة، وإن كان شراً ومعصية وكفراً تعينت كراهته، وإن لم يكن لا خيراً ولا شراً لم يتعين فيه الرضاء ولا الكراهة^(١). ثم ذكر الأحكام والحكمة فقال:

فصل

والحكمة العليا على نوعين أ ب	حداً حصلاً بقواطع البرهان
إحدهما في خلقه سبحانه	نوعان أيضاً ليس بمتفرقان
أحكام هذا الخلق إذ إيجاد	في غاية الإحكام والانتقان
وصدوره من أجل غايات له	وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه	أيضاً وفيها ذاك الوصفان
غاياتها اللاتي حوّلن وكونها	في غاية الإحكام والانتقان
هذا النوع الثاني مما يدل عليه اسم الله الحكيم، وهو أن له	

(١) قلت: لم يذكر هنا حكم الرضى بالمصائب، ولعله للخلاف فيه هل هو مستحب أو واجب، وقد ذكره في الدرة البهية وأنه مستحب، وظاهر كلام شيخ الإسلام الوجوب، والله أعلم.

الحكمة الثامنة في خلقه وأمره، وحكمته عليها لا يشابهها شيء، فليس كمثله شيء في جميع نعمته التي من جملتها الحكمة.

والحكمة في خلقه على نوعين:

أحدهما: أنه أحكم جميع ما خلقه وأتقنه بأحسن خلق وأتم نظام، لا يمكن أحداً من المخلوق أن يقترح أحسن منه، ولا يرى فيه عيباً ولا عيباً، فكل ما خلقه فهو محكم متقن، لم يخلق شيئاً عيباً، ولا خلق شيئاً معيباً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطُلُوكٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص/ ٢٧]، فهم الذين يظنون بالله الظن السيء، والذي من جملته أنه يخلق شيئاً لغير فائده ولا مصلحة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر/ ٨٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة/ ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين/ ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّخَلُّفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَإِنَّكَ لَآتِيٌّ الْأَلْبَسِ﴾ [آل عمران/ ١٩٠]، ونحوها من الآيات التي بحث الله بها العباد إلى النظر والتفكير في المخلوقات، لاشتمالها على الحكم البالغة والنعم السابعة، وأنها سالمة من كل عيب وعيب. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ فُتُورًا فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ ثم أرجع البصر كَرَرًا يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ [المائدة/ ٣ - ٤]، لم ير خللاً ولا نقصاً، بل يرى جميع العالم على أتم نظام وأكمل خلق وأحسنه، فهذا نوع من أنواع الحكمة في الخلق، وهو أنها كلها

الذي يأمر به هو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً، وذلك ما ترجحت مصلحته، وفائدته في القلب والبدن والدنيا والآخرة. والمنكر الذي ينهى عنه هو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً، وذلك ما ترجحت مضرته في الدنيا والآخرة والقلب والبدن. والطيبات التي أحلها كل مأكول ومشروب وملبوس ومتكوح وضغط الطيب والمنفعة الذي يضطر أو يحتاج إليه. والخيشات التي حرمها ضد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [المائدة/ ٤٢]، فالبر والتقوى الذي أمر الله بفعله والتعاون عليه كل عمل صالح وخلق فاضل وفعل رشيد وقول سديد، من الإخلاص لله تعالى، والصدق، وحسن الخلق، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى عموم الخلق، والعدل بينهم، وسلامة الصدر، والنصح للخلق، والتأديب بالآداب الحسنة، والرفق واللين والسماحة، وغير ذلك مما حث الشرع عليه.

وضد ذلك النهي عن الكبر، والتجبر على الخلق، والكذب، والرياء، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، وظلم الخلق في دمانهم وأموالهم وأعراضهم، وسوء الخلق، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق.

ومن أحكام الأمر والنهي أن شريعة نبينا محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان، فكل وقت ومحل يحتاج إليها فيه، بل لا تصلح الدنيا والآخرة إلا بالعمل بها، ولهذا كانت من أعظم الأدلة على كمال من أنزلها وعلمه وحكمته وصدق رسوله ﷺ، ولهذا

كان خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

والنوع الثاني من حكمة الأمر: أن الله أمر ونهى وشرع الشرائع ليتلى عباده، المطيع منهم والعاصي، والصادق والكاذب، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي يحبها ويرضاها، ولتتنور القلوب بمعرفته، والألسنة بذكره، والأعضاء بطاعته، وليشيب المطيعين من فضله وكرمه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وليتم عليهم فضله وإحسانه، إلى غير ذلك من الغايات والحكم التي شرع الله الشرائع لأجلها.

قال المصنف في «بدائع الفوائد» ج٥ ص ١٦٢ نشر دار الكتاب: فتأمل أسرار كلام رب العالمين، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد، من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وخمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقاً صادراً عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له، ولهذا أتى بالياء الدالة على هذا المعنى، دون اللام المفيدة للغاية وحدها، فالياء مفيدة معنى اشتمالها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، قمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما

حكمة كلية ومصلحة وحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكَّ لَكَلَّى الْقُرْآنَ﴾^(١) من لدن حكيم عليم. فأخبر عن مصدر المتلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقاً وعدلاً وهدى ورشاداً، وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: يا ويلتى ألد وأنا عجوز؟ قالوا: كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم، وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لهما على الكبر، وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على إلههم، ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد، لأنها شهادة حال لا تقبل كذباً، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده شاهداً دالاً على فاطره وباريه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوت، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبئهم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله، حتى يتبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لم تأملوه

لوجدوه مركزاً في فطرحهم مستقراً في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به عنه رسله من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته. وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على من سبقت له من الله سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يتاله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوت والمعاد، وطريق سهلة واضحة برهانية، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركز في أصل فطرتها وخلقها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفيش لوجد ذلك مركزاً في نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته، والشهادة بأنه لا إله إلا الله والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرق شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيبه، وانكشف عن قلبه حجاب ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَكٍّ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا نُرْهِم مُّهِتَدُونَ﴾^(٢) [الزخرف/ ٦٢]، فهناك يبدو له سر طال عنه اكتنامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن على كل كلمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي خلقكم وما بين يديكم من آياتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ^(٣) وأنشئ الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأخيا به الأرض بعد موتها ونصريف الريح بالنبوءات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٤) [الجمانية/ ٣-٥]، ثم تأمل وجه كونها آية، وعلى

إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بأمره وفعله،
والرب تعالى مالك الملك، فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثاً لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن
في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٩١]، ومن جحد شرع
الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام النعملة، فقد طعن
في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك قوله الحق يقتضي
كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه
وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعدته الحق، وأمره
الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاء المستلزم لشرعه ودينه ولليوم
الآخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله تعالى بأنه
الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقاً يستلزم
شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق
خلقاً عبثاً، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينههم، ولا يشيهم
ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿يَتَخَسَّبُ الَّذِينَ أَنْ يَرْكُضَكَ﴾ [القيامة/ ٣٦]، قال الشافعي: مهمل لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره:
لا يجرى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان،
فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب، وهو الأمر والنهي،
والآخر ذكر غاية الأمر والنهي، وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَّكُم مِّن مَّعْنَى ۖ ثُمَّ كَانَتْ غَلْفَةً فَنُقِلْتَ
فَسَوَّيْتُ ۖ﴾ [القيامة/ ٣٧-٣٨]، فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل

قلب النطفة وصرفها، حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم
قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها،
قدبرها بتصرفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها
بشراً سوياً، فكيف يتركه سدى، لا يسوقه إلى غاية كماله الذي
خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى
منتهاها ذلك على المعاد والنبوت، كما تدله على إثبات الصانع
وتوحيده وصفات كماله، فكما يدل أحوال النطفة من مبدئها إلى
غايته على كمال قدرة فاطر الإنسان وباريه، كذلك يدل على
كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن
يخلقها عبثاً، أو يتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم
ينهمهم على السنة رسوله، وأنه لا يعيهم للثواب والعقاب، كيف
كان هذا الزعم منهم قولاً بأن خلق السموات والأرض باطلاً، فقال
تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ [ص/ ٢٧]، فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم
رسولاً، ولم يجعل لهم أجلاً للقاءه، كان ذلك ظناً منهم أنه خلق
خلقاً باطلاً، ولهذا أثنى على عباده المتفكرين في مخلوقاته، بأنهم
أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً،
وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره
ونهيهِ وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا:
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ

النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ [آل عمران / ١٩١ - ١٩٢]، فلما علموا أن خلق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعودوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران / ١٩٣]، فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبيدته وبرسله وثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدوها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم فيها في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة / ٣٥]، وأخبر عن خاصة عباده أنهم يتفون الوسيلة إليه، إذ يقول تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الأنعام / ٥٧].

على أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة ذكرتها في كتاب «التحفة المكية» في بيان الملة الإبراهيمية، فأنمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنه لم يخلقهما عبثًا باطلاً، وأنمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته والإيمان به.

وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قطرة من بحر لا ساحل له،

فلا تستطله، فإنه كثر من كنوز العلم لا يلائم كل نفس، ولا يقبله كل مخروم، والله يختص برحمته من يشاء.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو كما ذكره في غاية النفاة، ويوضح هذا المبحث توضيحًا تامًا، وإذا شئت أن تعرف تفاصيل الحكمة في الشرع فاعتبر المسائل مسألة مسألة، فإنك تجدها في غاية الإحكام والإنفاذ، وفي أعلى درجات الحكمة والمصلحة، ولهذا كان الفقهاء والمتكلمون على الأحكام الشرعية يعلمونها بالمصالح والحكم والمناسبات، فلو كان الأمر والنهي والتحليل والتحريم غير تابع للحكمة لم يكن فائدة في تعليل الأحكام والاحتجاج بها عليها. ومن أراد التوسع في بيان حكمة الله في شرعه وقدره إجمالاً وتفصيلاً وتأصيلاً، فعليه بكتاب «مفتاح دار السعادة» للمصنف رحمه الله، فإنه يسطر الكلام فيه بسطًا شافيًا، وفيما نبهنا عليه من ذلك كفاية والله أعلم.

فصل

وهو الحي فليس يقضح عبده عند التجاهر منه بالمعصيان لكنه يلقي عليه ستره فهو الستر وصاحب الغفران هذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حيي ستر يستحي من عبده إذا مدَّ يديه أن يردعهما

(١) عن سلمان الفارسي.

صَفْرًا». وهذا من رحمته وكرمه وكفاله أن العبد يجاهره بالعصيان، وهو الفقير إلى ربه غاية الافتقار، حتى أنه لا يمكنه أن يفعل معصية الله إلا بالتفوي عليها بنعم ربه، فيستحي ربه الكريم الرؤوف الرحيم من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة عليه، فيستره بما يفيض له من أسباب السر ما لا يخطر على البال، ويعفو عنه، ويغفر له ذنوبه، فهو يتحجب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بعمل قبيح، ويستحي تبارك وتعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد إليه يديه أن يردهما من غير شيء، بل يدعو العباد إلى دعائه، ويعددهم بالإجابة، وهو الحي الستر، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة. ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه، ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور/ 19]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يخلو بعبد المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك قال: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتابه بميمته»^(١).

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

ومن العجب أن الكريم يستحي من فضيحة عبده، والظالم الجاهل لا يستحي من ربه، بل لا يزال دائبًا في معصيته، متبعًا لسخطه، يدعو ربه إلى بابه فيشرد عنه، ويدعوه عدوه إلى ولايته فيلبي دعوته، قد أقبل على عدوه الذي يشقى بطاعته في دنياه وأخراه، وتولى عن وليه الذي كل السعادة في الإقبال عليه والاشتغال بخدمته، وكل الأرباح في معاملته، ﴿أَفَسَخَدُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَذَابٌ بِمَا كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف/ 190]. ولما كان ترك الحق وترك بيانه على أي حال كان، لا يكون من الحياء المحمود، أخير تعالى أنه لا يستحي من الحق، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب/ 193]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوثَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة/ 121]. وذلك لأن بيانه الحق لعباده بأي طريق كان، من أجل نعمه عليهم.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليشوب من عصيان وهو العفو فعفوه وسع النورى لولاء غار الأرض بالسكان يعني أنه تعالى الحليم الذي له الحلم الكامل، العفو الذي له العفو الشامل. ومتعلق هلمين الوصفين الكريمين معصية العاصين وذنوب المجرمين، فإن الذنوب في الأصل تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة، فعلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ليتوبوا من عصيانهم. وعفوه تعالى يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب العفو من الاستغفار والتوبة النصوح، فإن حلمه وعفوه وسعًا أهل

السموات والأرض، فلولاً حلمه وعفوه لغارت الأرض بسكانها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ ذُنُوبَ النَّاسِ يُظْهِرُ فَا تَرَكَهُ عَلَيْهَا مِنْ ذَلِيلٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل/ ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انبَسَخَا مِنْ أَمَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا عَفِيفًا﴾ [فاطر/ ٤١].

وهو تعالى عفو يحب العفو، ويحب من عباده أن يجتهدوا في تحصيل أسباب عفوه، من السعي في مرضاته على الدوام، والعفو عن زلات العباد، قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فبم أدعوك؟ قال: قل: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، رواه مسلم. فمن سامح عباد الله سامحه الله، ومن عفا عنهم عفا الله عنه.

ومن كماله تعالى أن عفوه مقرون بالقدرة، فيعفو عن قدرة، لا كمن يعفو لعجزه عن الانتقام، ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء/ ١٤٩].

ومن تمام حلمه وعفوه أن المنجزم الذي أفنى عمره بالكفر به وبرسله وتكذيبه، وتكذيب رسله، والسعي في محاربته ومحاربة أوليائه، والحرص على إطفاء الحق وإظهار الباطل، أنه إذا تاب توبة نصوحاً، ورجع إليه نادماً على جرمه، فإنه يعفو عنه في ساعة واحدة جميع ما تقدم من المعاصي والإجرام. ﴿قُلْ لِلَّهِ يَتُوبُ الْإِنْسَانُ إِنَّهُ يَتَقَبَّلُ تَوْبَهُ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنفال/ ٣٨] وقال تعالى لما ذكر أصحاب الأخدود الذين حرقوا أوليائه المؤمنين بالنار، يدعوهم

إلى التوبة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ لَكِنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ﴾ [البقرة/ ١٩٠]، وقال النبي ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها»^(١).

وهو الصبور على أذى أعدائه شتموه بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولد وليس بعيدنا شتمنا وتكذبتنا من الإنسان
هذا وذاك بنسبه ويعلمه لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافهم ويرزقهم وهم يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الآيات مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الثابت الصحيح: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافهم ويرزقهم»^(٢). وبما ثبت عنه ﷺ في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قال الله تعالى: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقله إن لي ولداً، وأنا الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». ولهذا قال المصنف: وهو الصبور على أذى أعدائه، شتموه أي

(١) رواه أحمد في مسنده ١٩٩/٤، ٢٠٤، ٢٠٥ عن عمرو بن العاص، وليس عنده إلا القسم الأول.

(٢) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

سيوه سباً لا يليق بجلاله، ونسبوه للبهتان الذي يتنزه عنه، فالشتم هو السب بقولهم: له ولد، فإن هذا مناقض لوحديته وغناه، وأنه مالك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [يونس/ ٦٨] عن هذه النسبة الباطلة التي لا تصدر إلا من أعظم المبطلين، ثم ذكر ما يدفع ذلك فقال: ﴿هُوَ الْقَيُّومُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس/ ٦٨]، ثم ذكر مصدر هذا القول الذي قالوه، وأنهم يقولون ويتكلمون بلا علم، وهذا من أعظم المحرمات، فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ أي ليس عندكم أدنى حجة بهذا القول الذي قلتم، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس/ ٦٨]، ثم ذكر أنه افتراء، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ لَا يَقْلِبُوهُ﴾ [يونس/ ٦٩] وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ دَلِيلٍ وَمَا كُنْتُمْ مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ﴾ [الشورى/ ٩١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَتِيلُونَ﴾ [البقرة/ ١١٦]، ونسبته للبهتان هو تكذيبه بقول المنكرين للبعث: لن يعيدنا، وهذا تكذيب له ولرسله، قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعِيدُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيُعِيدُنَّ ثُمَّ لِنَأْتِيَنَّهُمْ بِمَاعِزَةٍ وَأُولَئِكَ عَلَى اللَّهِ بِشِيرٍ﴾ [النبا/ ٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَىٰ﴾ [الروم/ ٢٧]، فلم يبال المعاندون بقول الله، بل كذبوه ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِزًّا وَرُفًّا لَوْ نَكْفُرُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الاسراء/ ٤٩] أي لا يكون ذلك بزعمهم، فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة العظيم بقدرة العبد الضعيف، ولم يفقهوا قوله تعالى مخبراً عن عظمته وكمال اقتداره: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَمْسُكُكُمْ إِلَّا كَفْثٌ وَجِدْوٌ﴾ [لقمان/ ٢٨]، ﴿لَخَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [لقمان/ ٢٧]،

فقول المؤلف «اشتقا» عائد إلى نسبة الولد له، وقوله «لتكذيباً» عائد لانكارهم البعث، ثم قال: هذا وذاك أي نسبة الولد والتكذيب بالبعث يسمعه تعالى، يسمع ما به ينطقون، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، والحال أنه لو شاء لعاجلهم بكل هوان، أي بكل عقوبة تستأصلهم، لكمال قدرته، وعدم امتناعهم عن تنفيذ إرادته فيهم، ومع هذا يعافهم ويرزقهم، فيدبر لهم الأرزاق، وينعم عليهم بالنعيم وهم يؤذونه بالشرك والكفران، فهل مثل هذا الصبر شيء، فإنه صبر متضمن لإحسانه وقدرته، فإن الصبر قد يوجه عدم قدرة الصابر على مقابلة المؤذي، وقد يصبر على الأذى ولا يحسن إلى من أساء إليه، وأما الله تعالى فهو الصبور على الحقيقة، يؤذيه العبد الضعيف العاجز بمعاداته ومعاداة رسله، ومحاربة أوليائه، والسعي في إطفاء دينه، وناصيته بيد الله، وهو المنصرف فيه في حركاته وسكناته، ومع ذلك يمهله، ويستدعيه إلى التوبة، ويحثه على الإنابة ويُدِرُّ عليه الأرزاق الواسعة. فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، الصابر الذي يحب الصابرين، ويعينهم في جميع أمورهم.

فصل

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان
«الرقيب» و«الشهيد» مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع

المعلومات الجلية والخفية. ولهذا قال المصنف: وهو الرقيب على
 الخواطر، أي يعلم ما يخطر في القلوب من الأفكار والوسوس التي
 لم يتكلم بها العبد، وعلى اللواحق بالأبصار اللواحق الخفية والجلية،
 فإذا كان رقيباً على الخواطر واللحظات فكيف لا يكون رقيباً على ما هو
 أظهر منها من الأفعال بالأركان والحركات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝﴾ [الأحزاب/ ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ [المجادلة/ ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝﴾ [لق/ ١٦].

ولهذا كانت المراقبة هي التعبد لله باسمه «الرقيب»، فإذا علم
 العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر
 العبد لهذا العلم في جميع أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه
 عن كل فكر وهاجس يغيثه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو
 فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان، فعبد الله كأنه يراه، فإن
 لم يكن يراه فإنه يراه. قال تعالى منها على هذا المعنى: ﴿وَيُؤَكِّدُ
 عَلَى الْغَمْرِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَمْ يَرَىٰ يَرْبِكَ يَوْمَ تَقُومُ ۝ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ ۝﴾ [الشعراء/ ٢١٧ - ٢٢٠]. وقال الشاعر:

كان رقيباً منك برعى خواطري وآخر برعى ناظري ولساني
 فما خطرت في القلب مني خطرة لغيرك إلا عرجاً بجناسي
 ولا نظرت عيني لغيرك نظرة من الخلق إلا قلت قد رمتاني
 ولا بدرت من في بعدك لفظة لغيرك إلا قلت قد سمعاني

ثم قال المصنف:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيل بل يحفظهم من كل أمر عان
 ذكر رحمه الله للمحفيظ معينين:

أحدهما: أنه الحفيظ عليهم جميع ما عملوه من خير وشر
 وطاعة ومعصية، فإن علمه تعالى محيط بجميع أعمالهم ظاهرها
 وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ومع ذلك فقد وكل
 بالعباد ملائكة كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون. قال تعالى: ﴿يَوْمَ
 يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوَّةٌ﴾ [المجادلة/ ٤٦]، وقال
 تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ تُبِينُ ۝﴾ [يس/ ١٢]، وقال
 تعالى: ﴿الرُّقْعَلَمْ أُنْكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۝ إِنَّ
 ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [الحج/ ٧٠]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلُوحُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا
 لَدَيْ رَقِيبٍ عَيْنٌ ۝﴾ [لق/ ٤١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ
 كَرَامًا كُنِينَ ۝ يَحَافِظُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانشار/ ١١ - ١٢].

فهذا المعنى من حفظه تعالى على عبده متضمن لإحاطة علم
 الله تعالى بأحوال عبده الظاهرة والباطنة والأقوال والأفعال،
 وكتابتها باللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة،
 وعلمه تعالى بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب
 والعقاب، ثم مجازاته عليها بعدله وفضله.

والمعنى الثاني من معنى الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من
 جميع ما يكرهون، ولهذا قال المصنف: وهو الكفيل بحفظهم من

إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، ولهذا كان اللطف في أوصاف الله تعالى على قسمين:

أحدهما خبرته تعالى وإدراكه لأسرار الأمور وخفايا الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء، وهذا النوع يرجع إلى إحاطة علمه بالمعلومات، إلا أنه العلم الخاص في الأمور الخفية، ويلزم منه علمه بمغيبات الأمور، ومن ذلك لما ذكر تعالى تعلق علمه بما في باطن الأرض من خفايا البذور، واستخراجها من باطن الأرض بما ينزل عليها من السماء، وخبرته بشدة حاجة عباده إلى ذلك، ذكر هذا الاسم الكريم فقال: ﴿أَنْتَ تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٥٧﴾ (الحج/ ١٦٣)، فهو الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السموات والأرض، ويخرج الخبء في السموات والأرض، ﴿وَمَا تَقْطُوعُ رِجْوَاهُ إِلَّا بِعِلْمِهَا وَلَا حِجَابُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رُكُوبٌ إِلَّا فِي كُنُوبٍ مُبِينٍ ٥٨﴾ (الأنعام/ ١٥٩)، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ٥٩﴾ (غافر/ ١١٩).

والنوع الثاني لطفه بعبده ووليّه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فيسيره لليسرى، ويحبسه العُسرى، ويمتحنه بأنواع المحن التي تشق عليه ويكرهها، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته، كما امتحن أنبياءه بأذى قومهم، وبالجهاد في سبيله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (يوسف/ ١١٠)، وكما ذكر الله عن يوسف

عليه السلام بعد ما حصلت له المحن بإخوته، ثم بالرق، ثم بمراودة امرأة العزيز، ثم بالسجن الطويل، ثم جعل الله ذلك كله طريقاً إلى علوه وارتفاعه وملكه، وخضوع أبيه وإخوته له، ولهذا قال في آخر قصته: ﴿وَقَالَ يَتْلِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلَ قَدْ جَعَلَنِي رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْرِ مِنْ مُنْقَرٍ إِنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنَ بَنِي إِدْرِيكَ لَظِيفٌ لَمَّا بَشَّرَ أَنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْحَكِيمُ ١٠٠﴾ (يوسف/ ١٠٠).

وكثيراً ما يمتحن أولياءه بما يكرهون، لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: فيريك عزته، أي في امتحانك فيما تكره، ويبيدي لطفه، والعبد في الغفلات عن ذا الشأن، فلو اطلع على الغيب لفرح بكثير من الأمور التي تجري عليه بخلاف ما يهوى، وكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرق العبد لعطوب من مطالب الدنيا، من إمارة أو ولاية أو سبب من الأسباب الدنيوية، فيصرفه الله عنه رحمة به، لئلا يفسد عليه دينه، فيظل العبد حزيناً من جهله وعدم معرفته بربه. وفي الدعاء المأثور: «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما رويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضاءك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت»^(١).

(١) رواه الترمذي عن عبدالله بن يزيد الخطمي، وقال: حديث حسن غريب.

فصل

وهو الرقيق يحب أهل الرفق بل يعطيهم في الرفق فوق أماني
وهذا قد أخذه المؤلف رحمه الله من قول النبي ﷺ لعائشة
بعدما سمعت اليهودي الذي قال للنبي ﷺ: السام عليك يا محمد،
فأجابه النبي ﷺ بقوله: «وعليكم». ففعلت عائشة لليهودي،
فقلت: وعليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: «مهلاً يا عائشة،
إن الله رفيق يحب أهل الرفق»^(١). الحديث. وقال: «إن الله يعطي
على الرفق ما لا يعطي على العنف»^(٢).

فإنه تعالى رفيق في أفعاله، خلق السموات والأرض في ستة
أيام مع قدرته على خلقها في لحظة واحدة، وكذلك آدميون
والحيوانات وأنواع الأشجار والنبات يخلقها تعالى بالتدريج شيئاً
فشيئاً، حتى تتم وتكبر، وهذا من رفقته وحكمته التي فيها من
الفوائد والعنايف ما لا يدخل تحت الحصر. وإذا كان رفيقاً فهو
يحب أهل الرفق، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا يعطي غيرهم،
ولهذا ما كان الرفق في شيء إلا زائده، ولا كان العنف في شيء إلا
شانه. فالمتاني الذي يأتي الأمور برفق وبسكينة ووقار اتباعاً لسنة
الله في الكون، تنبئ له الأمور، خصوصاً الذي يأمر الناس
وينهاهم في مصالح دينهم ودنياهم، فإنه محتاج بل مضطر إلى

(١) رواه البخاري عن عائشة.

(٢) رواه مسلم عن عائشة.

الرفق واللين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمْتُم مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهٗم وَلَوْ
كُنْتُمْ قَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَخَذْتُم مِّنْ حَوْلِكُمْ﴾ [آل عمران / ١٥٩].

وكذلك من آذاه الناس بالأقوال البشعة، فصان لسانه عن
مشائمتهم، ورفع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم بسبب
ذلك ما لا يندفع عن قابلهم وصنع كصنيعهم، مع راحته وطمأنينة
قلبه واكتسبه للرزانة والحلم، وتتره عن سفسفة الأقوال، ولهذا
لما كان اليهود يريدون بخطابهم للنبي ﷺ يقولهم السام عليكم
يريدون الموت، من كمال حلمه ﷺ لم يشتمهم، بل قال: وعليكم
أي ما قلتم، ولهذا قال لعائشة: ألم تسمعي ما قلت لهم، فبين
عليه الصلاة والسلام أن المقابلة قد تحصل من دون كلام مستبشع
ولا قول غليظ. وقال سفيان الثوري رحمه الله: ينبغي للأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر أن يكون عالماً بما يأمر به، عالماً بما ينهى
عنه، عدلاً فيما يأمر به، عدلاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به،
رفيقاً فيما ينهى عنه، فالرفق يدرك به خير كثير، ويشيب الله عليه
ثواباً جزيلًا، والعنف بخلاف ذلك.

وهو القريب وقربه المختص بالـ سداي وعابده على الإيمان
يعني أن القريب من أسمائه تعالى قسمان: قرب عام، وقرب
خاص.

فالقرب العام إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان
من جبل الوريد، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ﴾

هُوَ سَائِدُهُمْ وَلَا أَقْبَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ قَبْلَ مَا كَانُوا ﴿[المجادلة / ١٧].

والنوع الثاني قربه المختص بالداعين والعابدين والمحيين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد والإجابة والقبول والإنابة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْجِدْ وَأَقْرِبْ ۖ﴾ [الملق / ١٩]، وقال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١)، فهذا قربه من عابديه، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة / ١٨٩]، فهذا قربه من داعيه بالإجابة والتوفيق.

وللمصنف هنا كلام حسن ذكره في «بدائع الفوائد»، فلنذكره لشدة الحاجة إليه، وعدم إجزاء غيره عنه، قال^(٢) في أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ إلى قوله...: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُتَحْسِنِينَ» [الأعراف / ٥٥ - ٥٦] وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًا، أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لا اقترابه منه وشدة حضوره يسأل مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقریب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم / ١٣]، فكلما استحضرت القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفى

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) ج ٢ ص ٧.

دعائه مهما أمكنه، ولم يثبت له رفع الصوت به، بل براء غير مستحسن، كما أن من خاطب جليًا له يسمع أخفى كلامه، فإنه لو بالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، والله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار إليه النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السجود، فقال: «اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١). وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة / ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فتناجيه، أم بعيد فتناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة / ١٨٦]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم سألوه فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأله مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قريبًا عامًا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخفى من قرب الإنابة

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواء، بل هو قرب خاص من الداعي والعايد، كما قال النبي ﷺ رواية عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»^(١)، فهذا قرب من عايد، وأما قرب من داعيه وسأئله فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب، وأما قرب تبارك وتعالى من محبة فتوح آخر ونبا آخر وشأن آخر، قد ذكرناه في كتاب «التحفة المكية»، على أن العبارة تنبؤ عنه، ولا يحصل في القلب حقيقة معناه، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها.

وقد ضعف تمييز خلافتي في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطوائف والشرائح، فقابلهم من غلظ حجابهم، فأفكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب «التحفة» أكثر من عانة طريق. انتهى كلامه رحمه الله.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وهو المجيب يقول من يدعو أجب له أنا المجيب لكل من ناداني وهو المجيب لدعوة المضطر إذا يدعوه لي سر وفي إعلان جعل المؤلف للمجيب معنيين: معنى عام، ومعنى خاص:

فالعام هو إجابته تعالى لكل من دعاه دعاء عبادة ودعاء مسألة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فدعاء المسألة أن يقول بلسانه: اللهم أعطني كذا، أو اللهم ارفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه للبر والفاجر، فقد يدعو الكافر بحصول رزق أو دفع عدو أو خروج من مشقة، فيستجيب الله له، ولا أعظم كفراً من إبليس، وقد سأل الله النظرة، فأنظره الله إلى يوم يبعثون، ولهذا يستدل بهذا النوع على كرم الباري وسعة جوده وحلمه.

ولا يدل مجرد الإجابة على حسن حال الداعي الذي أجيب دعوته، حتى يأتي ما يدل على ذلك، فإن اقترن بذلك ما يدل على تعيين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم، دل ذلك على صدق من أجاب الله دعاءه، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو بدعاء يرى الناس عياناً إجابته، فيجعلونه من دلائل النبوة وآيات صدقه ﷺ، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة دعواتهم، يجعلونه من كرامات الله لأوليائه.

وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، ومن أعظمها: دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله تعالى يجيب

دعوته، وذلك لشدة اقتدار العبد لربه في هذه الحال، وانقطاع يقلقه من المخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجاتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ولهذا قال المصنف: وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان.

ومن أسباب إجابة الدعاء إطالة السفر، والنوم إلى الله بأحب الوسائل المقربة إليه، من أسمائه وصفاته ونعمه، ودعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده أو عليه، وفي الأوقات والأحوال الشريفة، كما وردت بذلك كلمة النصوص والأخبار، التي لا يسعها هذا الموضع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِي﴾ [البقرة/ ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي رَقِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [آهراء/ ٦١]، وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَعُ غُلَامَهُ مِنَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ﴾ [النمل/ ٤٦].

وهو الجواد فجوده عم الوجو د جميعه بالفضل والإحسان وهو الجواد فلا يجيب سائلاً ولو أنه من أمة الكافرين يعني أن جوده تعالى عام لجميع المخلوقات، قد عمها وشملها، وملاها من فضله وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

وخاص للسائلين بلسان الحقال، أو بلسان الحال، من يَرِ وقاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وناله ما طلب، قال تعالى - وهو الرحيم - ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى/ ٢٨]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعْمَقٍ مِّنَ الْتَوَلَّى إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَلْيَبْتَغُوا﴾ [النحل/ ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنكُم مِّنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ وَإِنْ تُعْذُوا نَعْتَهُ اللَّهُ لَا تَحْصُوهُمَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم/ ١٢٤].

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر»، وفي رواية لغير مسلم: «ذلك بأنني جواد موجد واجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون».

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «إن خزائن الله ملأى، لا ينقصها نفقة، سبحانه الليل والنهار، رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يقض ما في يمينه، ويده الأخرى القسط، يخفض بها ويرفع»^(١). ومن وجوده وكرمه ما أعد الله لأوليائه في دار كرامته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن جوده وكرمه أنه المغيث لكل مخلوقاته، فلهذا قال:

وهو المغيث لكل مخلوقاته وكذا يجيب إغاثة اللهفان فالمغيث يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

المخلوقات عندما تتعسر أمورها، وتقع في الشدائد والكربات، من إطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وتخليص مكروبهم، وكشف الضر عنهم، وإنزال الغيث عليهم في وقت الضرورة إليه.

وكذا يجيب إغاثة اللهفان، أي دعاء من دعاء في حالة اللهف وشدة الاضطراب، فمن استغاثه أغاثه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [النوري/ ٢٨]، وقال النبي ﷺ: «إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل بضحك، يعلم أن فرجكم قريب»^(١). وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَّهْتُمْ بِهِمْ رِجَّةً وَقَرَحُوا بِهَا جَذَةَ تَارِمٍ مَّا كَانَتْ لَهُمْ رِجَاءٌ مِمَّنْ مُوَجَّهٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَعَلَوْا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَهُمْ آمِنَاتٌ مِنْ هَذِهِ لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام/ ٦٣ - ٦٤]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْرِفُ الشُّوَّةَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُفَاةَ أَرْجُلِكُمْ وَلَهُ سَعَى اللَّهِ قِيلًا﴾ [الحل/ ٦٢]، وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق/ ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الإنشراح/ ٦]، وقال النبي ﷺ في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي وغيره: «واعلم

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٣/٤ عن لقيط بن عامر بنحوه ضمن حديث طويل.

أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: إنه نادى في الظلمات أن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء/ ٨٧ - ٨٨]، أي إذا وقعوا في الشدائد نجاهم الله، ودفعها عنهم بإيمانهم، ولهذا ينجيهم من كربات الموت وشدة القبر وأهوال يوم القيامة، حين تعجز قدرهم، ولا يبقى ملجأ يلجئون إليه إلا الله تبارك وتعالى، وكم أنجى في الدنيا من الكرب والشدائد كثيراً من أنبيائه وأوليائه، وأغاثهم بلطفه، ودفع عنهم بعزته، ورحمهم ويسرهم لليسرى.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلوبهم وجازاهم بحب ثاني
هذا هو الإحسان حقاً لا معاً وضة ولا لشوق الشكران
لكن يحب شكورهم وشكورهم لا لاحتياج منه للشكران

هذا تفسير لاسم تعالى «الودود»، وقد اختلف المفسرون في تفسيره، فقول: إنه فعول بمعنى قاعل، وقيل: إنه فعول بمعنى مفعول. والصحيح أنه بعم النوعين كليهما كما قال المصنف، فهو الودود الذي يود عباده المؤمنين وأوليائه الصالحين، وهو الودود لأوليائه وعباده المتقين، بل لا شيء أود إليهم منه، ولا تعادل

محبة الله محبة، لا في أصلها ولا في متعلقاتها ولا في كيفية، وهذا هو الواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبية على كل محبة، ويتعين أن يكون كل محبة تبعاً لمحبة الله. قال تعالى: ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَكْفِ يَحْيِيَهُمْ وَيُحْيِيَهُ﴾ الآية [المائدة/ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٤]. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾ [الصف/ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج/ ١١٤] إشارة إلى أن من أحبه الله غفر له الذنوب، ويسره لكل مطلوب. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١]. والدليل على وجوب محبة الله تعالى وأنه يجب تقديمها على سائر محاب النفوس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ... إِلَى قَوْلِهِ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرْكُوا حَتَّى بَأَيْتَ اللَّهِ بِأَمْرِهِ﴾ [النوبة/ ٢٤]، فتوعد تعالى من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله واتباع مرضاة الله.

ولهذا كانت محبة الله تعالى هي روح الأعمال، وجميع العبودية ناشئة من محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو الذي أحب عبده، فجعل المحبة في قلبه. ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان على الحقيقة، إحسان محض ليس المقصود به المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده، ومحبة للشكر من غير

حاجة منه إلى الشكر، بل المصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي أودع محبته في قلوب عباده المتقين، ثم لم يزل ينميتها ويقويها حتى وصلت إلى حالة تنضال عندها المحاب، وتسليمهم عن المألوفات، وتهون عليهم المضيات، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات، التي أعلاها حصول محبة الله والفوز برضاه والأمن بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه، محبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله له على محبته، صار بها من أصفياه المخلصين. فنسألك اللهم حبك وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا وأهلنا وأولادنا ومن الماء البارد، واجعل كل محبة تعلقت منا بغيرك تابعة لمحبتك.

وأعظم سبب يكتب به العبد محبة الله التي هي أعظم المطالب: الإكثار من ذكره، وكثرة الإنابة إليه، وكثرة التقرب إليه بالفرائض والتوافل، وتحقيق متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن

سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته. رواه البخاري^(١).

والمقصود أن معنى الودود أنه المحبوب المودود، أعظم مودة وأصفاه وأخلصها من عباده المؤمنين، الواد لعباده القائلين بحبابه ومراضيه، وله الفضل والمنة في ذلك كله.

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم لكن يضاعفه بلا حساب

ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان

إن غلبوا فعدله أو نعموا بفضل الله والحمد للمنان

قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء/ ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن/ ١٧]. فمن أسماه تعالى: الشاكر الشكور، الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، ولا يتركه باطلاً، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة بلا عد ولا حساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف/ ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة/ ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ وَالْحَسَنَةُ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ [الأنعام/ ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً فُضِّلْتُهَا فَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ١١]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مَنَاحِيحَ مَسَاكِينٍ فِي كُلِّ صُفْحَةٍ مِمَّا تَرَءُوهُ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ نِهَا وَهُمْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَهُمَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [الصل/ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُصْطِحَاتٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ [الأنبياء/ ٩٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة/ ٧].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» وقال ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَلِ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ فَإِنْ اللَّهُ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ فَيَرْبِيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يَرْبِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهَ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجِبَلِ الْعَظِيمِ» متفق عليه^(١).

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على سعة فضل الله، وأنه الشاكر لسعي العاملين، الذي لا يضيع عمل عامل، وبعبارة ما يتحمل المتحملون من أجله. ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك لأجله عوضه الله خيراً من ذلك، وهو الذي وفق عباده

(١) من حديث عبدالله بن عباس.

(١) عن أبي هريرة.

المؤمنين لعرضاته، ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه بالأصل، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه. ولهذا قال المصنف: ما للعباد عليه حق واجب، هو أوجب الأجر العظيم الشأن. وهذا القيد الذي قيده به المصنف أحسن من إطلاق من أطلق ذلك بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب كلاً ولا سمي لديه ضائع

وكذلك تقييد المصنف للسمي الذي لا يضيعه الله بقوله: إن كان بالإخلاص والإحسان، أي مقصوداً به وجه الله، محبباً فيه على سنة رسول الله، لأن العمل لا يكون صالحاً حتى يوجد فيه هذان الشرطان الإخلاص والمتابعة، كما قال في موضع آخر:

فقيام دين الله بالإخلاص والإحسان إنهما له أصلان

وقول المؤلف: إن عذبوا فبِعَذْلِهِ، لأنه لا يعذبهم إلا بذنوبهم التي اجتروحوها، بعدما قامت عليهم حجة الله، وحذرهم الله منها غاية التحذير، فإذا استمروا على الطغيان بعد ذلك، ولم يقبلوا نصائح الناصحين، علم أنهم لا يصلحون إلا للعذاب، فعذب قبيح حيث عذبهم، لأنه لم يضع العقوبة إلا في موضعها. وأما إنعامه وإكرامه فإن ذلك محض فضله وإحسانه، لأنه الذي وفقهم وأعانهم وأعد لهم من الكرامات ما لا يقابله أضعاف أضعاف أعمالهم، ولكن له تعالى تمام الحمد وكمال النعمة، وله الفضل أولاً وآخرًا

وظاهرًا وباطنًا.

قال في «بدائع الفوائد»^(١): قد أخبر الله سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب وهو متعلق بالإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه بقوله في الحديث الصحيح: «لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش، إن رحماني تغلب غضبي»، وفي لفظ: «سبقت غضبي»^(٢).

فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٧]، فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على. ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار»^(٣). ومنه قوله ﷺ في

(١) ج ٢ ص ١٦١.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) متفق عليه.

غير حديث: من فعل كذا وكذا كان حقاً على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد، فهذا الحق الذي أحقه على نفسه. ومنه الحديث الذي في المسند عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: أسألك بحق مشاي هذا، وبحق السائلين عليك، فهذا حق السائلين عليه هو أحقه على نفسه، لا أنهم أوجبوه وأحقوه، بل أحق على نفسه أن يجيب من ماله، كما أحق على نفسه في حديث معاذ أن لا يعذب من عبده، فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يشيهم، والحقان هو الذي أحقهما وأوجبهما، لا السائلون ولا العابدون، فإنه

ما للعباد عليه حق واجب كلاً ولا سعي لديه ضائع إن عذبوا فبذلك أرنعموا فيفضله وهو الكريم الواسع ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ عَلِمْتُمْ خَقّاً فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُتُورَةِ﴾ [التوبة/ ١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذي أحقه على نفسه وأوجبه. ونظير هذا ما أخبر به تعالى من قسمه ليفعله، نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر/ ٩٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [برئيم/ ٦٨]، وقوله: ﴿لَنُثَلِّكَنَّ الظُّلُمَاتِ﴾ [إبراهيم/ ١٣]، وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [آل عمران/ ٨٥]، إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يتعلق بقوله: ما للعباد عليه

حق واجب، هو أوجب الأجر العظيم الشأن، فإن إيجابه على نفسه ما أوجه فضل منه وإحسان، لا معاوضة ولا في مقابلة عمل مستقل من أحد من العالمين، فله المنة في هذه الدار وفي دار البرزخ ودار القرار.

فصل

وهو الغفور فلو أتى بقرابها من غير شرك بل من الغضبان لاقاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الغفران يعني أنه تعالى الغفور الذي وصفه المغفرة للذنوب والجرائم، فلو أتى العبد بقراب الأرض خطايا وهو لا يشرك بالله شيئاً، لاقاه الله بقرابها أي بملئها مغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا تُؤْنِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/ ٤٨، ١١٦]، هذا مع عدم التوبة، وأما التوبة فإن الله يمحو بها الذنوب الكبار والصغار، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُونَ إِلَيْهِ أَسْرَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُمُ الْمُغْفُورُونَ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم/ ٣٢]، فمغفرته تعالى وسعت كل شيء، فالعباد لا يزالون يذنبون، والله يتجاوز عنهم، ويحب العفو عنهم، وهو وإن كان واسع المغفرة فإنه قد جعل للمغفرة أسباباً تنال بها، لأنها أعظم المطالب، وذلك كالنوبة والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، ومغفرة ما يصدر منهم، وحسن الظن بالله

تعالى، وغير ذلك مما جعله مقرباً لمغفرته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَكَمَنَّ وَجْهِي لِّلْمُتَّعِينَ﴾ [طه/ ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ﴾ [هود/ ١١٥]، ﴿إِنَّمَا مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف/ ٩٠]، وقال النبي ﷺ: «من يره الله به خيراً يصب منه»^(١).

وقد تكاثرت النصوص الدالة على تكفير السيئات بالمصائب والمكآره التي تصيب العبد، خصوصاً إذا عمل بما أمره الله به من الصبر والاحتساب، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(٢). ولولا عفو ومغفرته ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكنه يعامل عباده بالإحسان إليهم، بحصول الخيرات ودفع المضرات التي انعدت أسبابها، فيحلبها ويزيل آثارها، وسيأتي إن شاء الله وجه عدم دخول الشرك في مغفرة الله في آخر هذه الفصول.

وكذلك الثواب من أوصافه والتوب في أوصافه نوعان إذن بتوبة عبده وقبولها بعد المصاب بمئة المئتان يعني أنه الثواب أي كثير التوبة على الخطائين والمذنبين، وتوبته على عبده نوعان:

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم عن أبي ذر.

الأول: إذنه لعبده وتوفيقه للتوبة، فإنه لولا توفيقه لما خطر بقلب العبد إرادة التوبة، ثم لولا توفيقه لما ضارت تلك الإرادة عزماً جازماً مقروناً بفعل أسباب التوبة، من الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على أن لا يعود إليه، والاستمرار على ذلك.

النوع الثاني: توبته على عبده بعد توبة العبد، بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فهو الذي من بالسبب والسبب، وله الفضل والإحسان في أول الأمر وآخره، فعلى العبد الاجتهاد في مرضاته، والشكر له على توفيقه ومنته، قال النبي ﷺ: «التوبة تجب ما قبلها»^(١)، متفق عليه. وقال تعالى بعدما ذكر الشرك والمعاصي الكبار، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ ذُلًّا بَلَىٰ أَشَٰمًا ۚ يَضَعُفُ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْدَرُ رُوحُهُ مَهَانًا ۚ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۚ﴾ [الفرقان/ ٦٨ - ٧١].

ومن لطفه تعالى وكرمه أنه يفرح بتوبة التائب، أعظم من فرح من فقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، في أرض مهلكة دوية، فطلبها حتى أيس منها، وجعل ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال إذا هو براحلته على رأسه، فأخذ يخطاها، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبيدي وأنا ربك، أخطأ من شدة

(١) لم نجده في المسانيد بهذا اللفظ.

الفرح الذي أذهب حواسه وإدراكه، كما ثبت ذلك في الصحيحين^(١).

فصل

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجوه، كماله ما فيه من نقصان

هذا معنى اسمه «الصمد» المعنى الجامع، الذي يدخل فيه كل
ما قسريه الصمد، فهو الصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات
بالذل والحاجة والافتقار، ويقصده العالم العلوي والسفلي في
حوائجه ومهماته، لا يستغني أحد عنه طريقة عين. وهو الصمد
الذي له الصفات الكاملة من كل الوجوه، الذي ما في كماله من
نقصان، فهو العليم الكامل في علمه، الحليم الكامل في حلمه،
الرحيم الكامل في رحمته، وهكذا سائر الصفات، فالصمد الذي
تصمد إليه جميع المخلوقات لأنه كامل الصفات.

قال المصنف في «البدائع»^(٢):

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون ذالاً على عدة
صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال
على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم والمنجيد
والصمد، كما قال ابن عباس في ما رواه عنه ابن أبي حاتم في

(١) عن أنس بن مالك.

(٢) ج ١ ص ١٦٨.

تفسيره: قال: الصمد الذي كمل في مؤدده، والشريف الذي قد
كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي
قد كمل في حكيمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم
الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه
ومؤدده، وهو الله سبحانه وتعالى، هذه صفته لا ينبغي إلا له،
ليس له كفواً أحد، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار،
وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء
الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم.

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان

لولم يكن حياً عزيزاً قادراً ما كان من قهر ولا سلطان

«القهار» هو الذي قهر الأشياء، وانقادت لعظمته ومشيتة
المخلوقات كلها، فلا يحدث حادث إلا بمشيئة الله، ولا يمكن
ساكن إلا بإرادته، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ﴾ [الرعد/ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
مُسْحَرُونَ وَأَمْرُهُ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس/ ٣]،
وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس/ ٣١]، وقال تعالى: ﴿مَّا مِنْ دَآئِيَةٍ إِلَّا هُوَ بِهَا
بَاصِعٌ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود/ ٢٥٦]. فالخلق كلهم فقراء

إلى الله من جميع الوجود، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. والله تعالى هو المالك للملك، الذي له العظمة والسلطان والتصرف.

ثم ذكر المصنف أن القهار من أسمائه مستلزم لكمال حياته وكمال عزته وكمال قدرته، لأنه محال أن يكون قاهرا لكل شيء وهو غير حي ولا عزيز ولا قادر، ولهذا قال: لو لم يكن حيا عزيزا قادرا ما كان من قهر ولا سلطان. وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول في أنواع الدلالات.

وكذلك الجبار من أوصافه والجبر في أوصافه قسمان
جبر الضيف وكل قلب قد غدا ذا كسرة فالجبر منه دان
والثاني جبر القهر بالعز الذي لا يتنفي لسواه من إنسان
وله معنى ثالث وهو العلو فليس يدنو منه من إنسان
من قولهم جبارة للنخلة الـ عليها التي فانت لكل بنان
يعني أن للجبار معنيين بل ثلاثة معاني، كلها داخلية في اسمه الجبار.

فهو الجبار يجبر القلوب المنكسرة من أجله، فيجبر الكبير، ويغني الفقير، وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتبينه وتوقيفه للضرر، وإعاضته على ذلك أكمل الأجر، ويجبر قلوب الخاضعين لعظمته، الخاضعين لكبريائه، ويجبر قلوب

المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وحنوف ممراته، فالقلب المنكسر لربه جبره من أقرب الأشياء، ولهذا كان دعاء المظلوم والمضطرب والمريض والمسافر ونحوهم مجابا للكسرة التي في قلوبهم، ومن هذا قول الداعي: اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني، فإن الجبر معناه جبر الشيء المنكسر بإصلاحه وتقويمه وإزالة كسره، ومنه الجبيرة وهي اليد التي تكسر فيربط عليها ما يشدها ويقيمها، فسنال العبد لربه أن يجبره يتضمن الدعاء بإصلاح حاله، وتقويم أموره، وسائر شئونه، وإزالة ما فيه من الوهن والضعف والنقص.

والمعنى الثاني للجبار أنه القهار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والمعنى الثالث أنه الجبار، أي العالي على خلقه، الذي من عظمته وكبريائه قد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه أحد منها لكمال رفعة وجلاله، وهذا المعنى مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبارة، فالجبار العالي على كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمنكسرين، خصوصا المنكسرين من أجله.

فصل

وهو الحبيب حماية وكفاية والحبيب كافي العبد كل أوان يعني أن «الحبيب» معناه الكافي لعبده جميع ما أهمه من أمر

دينه ودينه، الحامي له من جميع المكروه، لأن الحبيب بمعنى الكفاية، فالحبيب هو الكافي. وللحبيب معنى آخر لم يذكره المصنف، وهو أنه الذي يحفظ على العباد أعمالهم من خير وشر، ثم ينبتهم بها، ويحاسبهم عليها، ويعرفهم بمقادير أعمالهم ومراتبها في الخير والشر، ويجازيهم عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَبِيبًا﴾ [النساء/ ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق/ ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر/ ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْمَرْضِ الْمَطْلَبِ﴾ [التوبة/ ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال/ ٦٤]، أي كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به العبد من اتباع الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، وبحسب عبوديته لربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر/ ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢٨٤]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على محاسبته لعباده بما عملوه، وعلى كفايته إياهم جميع أمورهم.

وهو الرشيد لقوله وفعله رشد وربك مرشد الحيران
وكلاهما حق فهذا وصفه والفعل للارشاد ذلك الثاني
يعني أن معنى «الرشيد» الذي قوله رشد، وأفعاله رشد، المرشد لكل حيران وتائه وضال إلى الصراط المستقيم بياناً وتوفيقاً. وكلا

المعنيين حق، فهذا وصف، أي كونه أقواله وأفعاله رشد، والفعل للارشاد ذلك الثاني، أي كونه مرشد الحائرين وهادي الضالين.

فأما أقواله تعالى فإنها أقوال قدرية وأقوال شرعية دينية، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء، ويدير بها ما شاء من أنواع التصاريق، كلها حق، لأنها مشتملة على الحكمة التامة التي يحمد عليها تعالى أتم حمد وأكمل. ويُعرف ذلك باستقراء المخلوقات وما فيها من الحكم والمصالح، وأنه لا عيب فيها بوجه من الوجوه.

وأقواله الشرعية الدينية هي الأقوال التي تكلم بها في كتبه وعلى السنة رسلاً، المشتملة على الصدق التام في الأخبار، والعدل التام في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قبيلاً ولا أحسن منه حديثاً، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي، وهي أعظم ما يرشد به العباد، بل لا حصول إلى الرشاد غيرها، فمن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشاد العلمي، وهو بيان الحقائق والهدى والضلال والأحكام الشرعية، ويحصل بها الرشاد العملي، فإنها تزكي النفوس، وتظهر القلوب، وتدعو إلى صالح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحت على الأفعال الجميلة، وترهب عن الأفعال الرذيلة، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو الغاوي، والله تعالى لم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل، وإنزاله عليهم الكتب المشتملة على الهدى، وكم قد هدى ضالاً، وأرشد جافراً، فهو الرشيد في قوله وفعله وإرشاده.

والعدل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم بالميزان
فعلى الصراط المستقيم إلهنا قولاً وفعللاً ذاك في القرآن
يعني أن الله هو الحكم العدل في وصفه وفي فعله وفي قوله
وفي حكمه بالقسط، وهذا معنى كونه تعالى على صراط مستقيم،
كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود/ ٤٩]،
وذلك لأن أفعاله تعالى كلها دائمة بين الفضل والعدل والحكمة،
فكلها أفعال رشيدة مستقيمة، وجميع أقواله صدق وعدل، وحكمه بين
الديني عدل، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه عدل، وحكمه بين
عباده في الجزاء والثواب والعقاب عدل، فليس في شيء من ذلك
ظلم بوجه من الوجوه، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا يجمده
المخلوق بعدما يقضي بينهم في القيامة، فقال: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ
وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر/ ٧٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي
أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قُبِيَثٌ﴾ [النور/ ١٧]،
وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن/ ٧]،
وقال تعالى أمراً بعباده بإقامة العدل والقسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء/ ١٣٥]، ولهذا اتفقت الشرائع
كلها على الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تعييل ومن نقصان

يعني أن من أسمائه القدوس السلام، فالقدوس هو المنزه
المنعظم عن كل سوء، وكذلك السلام على الحقيقة، وضابط ما
ينزه عنه أمران ذكرهما المؤلف:

أحدهما: أنه الكامل المنزه عن مماثلة أحد من المخلوقات،
فليس كمثله شيء في جميع نعوته، لكنمال أوصافه.

والثاني: أنه المنزه عن كل عيب ونقصان، والنقصان يرجع
إلى ما يناقض أوصاف كماله، فالقدوس السلام يرجع معناها إلى
التنزيه، ويلزم من التنزيه التعظيم والثناء عليه بصفات الكمال، لأن
التنزيه والسلب المحض ليس مدحاً، حتى يتضمن إثبات صفة
وهو الكمال.

قال المصنف في «بدائع الفوائد»^(١): فصل إذا عرق هذا
فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه هو أولى به من هذا
كله، وأحق من هذا الاسم من كل مسمى به، لسلامته سبحانه من
كل عيب ونقص يتخيله وهم.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من
كل عيب وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو
السلام الحق من كل وجه ويكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى
لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

(١) ج ٢ ص ١٣٥.

وهذا هو حقيقة التثنية الذي نزه به نفسه ونزّه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفو والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلافاً من ما يضاد كمالها، فحياته سلام من السُّنة ومن الموت والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكير، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، ومملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحليم وعفو وصفح ومغفرة وتجاوز سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام أن يكون ظمناً أو تشغيلاً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضع الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمته، بل لو وضع الثواب مكان العقوبة لكان مناقضاً لحكمته وعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمدة وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهمه أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدرته سلام من العيب والجور والظلم

ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة... وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته. بل شرعه كل حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو حاجة إلى المعطي. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه. بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وحملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر. ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره، من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ليس مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله وغناه، وسلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يكون تحت شيء أو محصوراً في شيء، فتعالى الله ربنا عن كل ما يضاد غناه وكماله. وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. ومولاته لأوليائه سلام من أن يكون عن ذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي مولاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ وَلَاحَاقَ لَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكَ فِي

الْمَلِكُ وَكَذَلِكَ لَا يَمُنُّ إِلَّا الَّذِينَ يَحْكُمُونَ [الأنعام / ١١١]. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تعلق له أو انتفاع بقربه. و«سلام» مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مثبته أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه «السلام» كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى. وكم من يحفظ هذا الاسم ولا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني. والله المستول أن يوفق على تعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب. انتهى كلامه رحمه الله. وقد اشتمل من تفصيل معاني هذا الاسم الكريم على خير كثير.

والبر في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبر حيتله نوعان وصفه وفعل فهو بر محسن بولي الجميل ودائم الإحسان يعني أن البر في نسبه إلى الله نوعان:

أحدهما: أنه البر الرحيم الذي انصف بالجوود والكرم، وكثرة الخيرات، وأصناف البر الذي لا ينتهي له.

والثاني: أنه البر بمعنى أنه المحسن الذي أنعم على العباد بأصناف النعم، ودفع عنهم جميع النقم، فما بالعباد من بر وإحسان وخير وسرور في دينهم ودنياهم إلا من الله. وبر الأبرار الذي

استحقوا به دخول الجنة من لطفه بهم وتوفيقه إياهم، فمعنى البر هو المنتصف بالرحمة العظيمة، الذي وإلى على خلقه آثارها، وأسدى عليهم من جوده ما به استقامت أحوالهم وتمت أمورهم.

وكذلك الوهاب من أسمائه فتأنظر مواهبه مدى الأزمان أهل السموات العلوى والأرض عن تلك المواهب ليس يتفكران

يعني أنه تعالى «الوهاب» مستمر الإحسان متواتر الفضل، لم يزل ولا يزال محسناً متفضلاً، دائم الهبات كثير الخيرات جزيل العطايا، لا يخلو مخلوق عن رحمته وإحسانه طرفة عين، فأهل السموات والأرض وأهل الدنيا والآخرة لا يتفكرون عن جوده وإحسانه، ولا يستغنون عنه في حال من الأحوال، بل هم المفتقرون إليه على الدوام، فيهب لهم من إحسانه ما به تقوم أمورهم الدنيوية، ويهب لعباده المؤمنين من لدنه رحمة تلم بها شعبتهم، ويصلح فيها نقصهم، ويرقيهم بها إلى أعلى الدرجات والوصول إلى أجل الكرامات، ولا يمكن أحداً من المخلوقين تعداد بعض نعم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [التحل / ١٨].

وكذلك الفتاح من أسمائه والفتح في أوصافه أمران فتح بحكم وهو شرع إلها والفتح بالأقدار فتح لثاني والرب فتاح بذي كلبهما عدلاً وإحساناً من الرحمن يعني أن من أسمائه الحسنى «الفتاح»، وذلك على قسمين:

أحدهما: الفتح بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على الأمة رسوله ما به تقوم أحوال المكلفين، وتستقيم أحوالهم الدينية والدنيوية، ويعرفهم كل ما يحتاجون إليه.

وأما فتحه بحكمه الجزائي فهو فتحه بين أنبيائهم ومخالفهم، وبين أوليائه وأعدائه، والفتح يوم القيامة بين سائر الخلق حين يوفي كل عامل بعمله: ﴿وَيُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَغْلِبُوكَ﴾ [التحل/ ١١١].

وأما فتحه القدري فهو ما يفتح على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر/ ٢٢]، فهذا في فتح الخير. وقال في فتح الشر على من تعرض له: ﴿إِنْ كَسَبَتْ خَوَافَقَدْ جَاءَهُمْ الْفِتْنَةُ﴾ [الأنفال/ ١١٩]، واستفاحتهم طليهم أن يحل بهم ما وعدهم الله على لسان رسوله، تكليفا للرسول وتعجيزا لربهم، وقال تعالى في فتحه بين أنبيائه ومن خالفهم: ﴿وَيَقُولُوكَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨-٢٩]، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْمُهُمْ [السجدة/ ٢٨-٢٩]، أي حين ينزل بهم العذاب الذي توقعوا به، وقال شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف/ ٨٩]، وقال في الفتح بين عباده في دار الجزاء: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا وَالْحَقُّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا/ ٢٦].

فالرب هو الفتح الذي انفرد بالعطاء والمنع، وهو الذي يفتح للعباد خزانين جوده وكرمه، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، وكل هذا تابع لعدله وفضله، يحمد عليه أتم الحمد وأكملها، ولهذا قال المصنف: عدلاً وإحساناً من الرحمن.

وكذلك الرزاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضاً ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان	والرزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في	تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبار	وليس بالاطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات/ ٥٨]، وذكر المؤلف رحمه الله أن رزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الرزق الذي على يد الرسول ﷺ، رزق القلوب بالعلم والإيمان وحفاظه، ورزق البدن بالحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص الله به المؤمنين والذي يسألون منه شامل لذلك كله. فينبغي للداعي بالرزق أن يستحضر بقلبه هذه الأنواع، فإذا قال: اللهم ارزقني، فمعناه اللهم ارزقني ما يصلح به قلبي من العلم والهدى

والمعرفة، ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيء، الذي لا مشقة فيه ولا تبعه تعثره، وهذا وسيلة للأول، والأول هو المقصود من العبد، ولا بد له من الثاني ليعد بدنه ويصلح لإقامة دين الله.

والنوع الثاني من الرزق: الرزق العام لسائر الخليفة، يرزقها وفاجرها، بل ناطقها وبهيمة، وحقيقته هو أن يسوق الله لكل حيوان قوته الذي به تصلح بيئته ويستقيم بدنه، ولا بد لكل مخلوق من هذا الرزق، وقد تكفل الله به لكل دابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ [هود/ ٦]، أي فيوصل لها رزقها في أي مكان كانت، في ظلمات البحار، وفي جوف الأرض والصخور، وفي العالم العلوي أو السفلي، وهذا قد يكون بأسباب، وقد يأتي في بعض الأوقات بلا سعي من المخلوق، وقد يكون السبب مباحاً وقد يكون محرماً، ولهذا قال المصنف: هذا يكون من الحلال كما يكون من الحرام، وربنا رزاقه بهذا الاعتبار، أي من جهة أنه أوصل إليه بقضائه وقدره ما به يستقيم بدنه، وإن كان محرماً يلام عليه العبد، ولا يتعلق به أمر الله، بل هو منهي عنه. وقوله: وليس بالإطلاق أي وليس هذا الرزق الذي يكون من الحرام يسمى رزقاً مطلقاً، بحيث يكون رزقاً تاماً لا محذور فيه، وإنما يقال مطلق رزق.

وبهذا يعرف الجواب عن السؤال المشهور إذا قيل: هل لله على الفاجر نعمة ورحمة؟ وهل الله رزقه أم لا؟

فالجواب أن يقال: أما النعمة المطلقة والرحمة المطلقة والرزق المطلق فإن هذا مخصوص بالمؤمن المتبع لمرضاة الله، فإن هذه الأمور تكون نامة في حقه. وأما الكافر والفاجر فله من ذلك مطلق الرحمة ومطلق الرزق، فإنه لولا رحمته ورزقه لما وجد، ولما استقام بدنه، ولما حصل له ما يوافق هواه.

وفي كلام المصنف إشارة لرد قول من قال من المعتزلة وغيرهم: إن الحرام لا يسمى رزقاً لوجود التبعه فيه، وهذا قول فاسد، من لازمه أن من يتلذذ بالحرام فالله لم يرزقه، وهذا مصادم لما دلت عليه النصوص، ولما تقرر عند كافة بني آدم الميثيق لوجود الله فإنهم متفقون على أن الله هو الرزاق وحده، كما أنه الخالق وحده، وأنه عامن مخلوق يخلو من رزقه في وقت من الأوقات، ولكن الحرام لا يسمى رزقاً مطلقاً، وإنما هو مطلق رزق كما تقدم.

فصل

هذا ومن أوصافه القيوم	والقيوم في أوصافه أمران
إحدهما القيوم قام بنفسه	والكون قام به هما الأصران
فالأول استغناؤه عن غيره	والفقر من كل إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن عظيم	مكذا موضوعه أيضاً عظيم الشأن
والحي يتلوه فأوصاف الكما	ل هما لأنفق سمائه قطبان
فالحي والقيوم لن تتخلف الـ	أوصاف أضلاً عنهما ببيان

هذا تفسير للحَيِّ القيوم، وجميعهما في غاية المناسبة، لأن الله جمع بينهما في غير آية، كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آية الكرسي وفاتحة آل عمران)، ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه/ ١١١]، وذلك أنهما - كما قال المصنف - مشتملان على جميع أوصاف الكمال ومتضمنان لذلك، فإنك إذا أعطيت هذين الاسمين أحدهما من المعنى لم يتخلف عن ذلك شيء من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وبين ذلك أن الحي هو من له الحياة الكاملة التامة، التي لا تنقص فيها بوجه من الوجوه، والحياة الكاملة مستلزمة للسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة النافذة، وسائر الصفات الذاتية داخلية في معنى الحياة.

وأما الصفات الفعلية التي يفعلها الباري، مما يتعلق بنفسه: كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده، والكلام، وغير ذلك، ومما يتعلق بالمخلوقات: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والرحمة وأنواع التدابير الإلهية، فإنها داخلية في القيوم، لأن معنى القيوم هو الذي قام بنفسه بماله من صفات الكمال ونعوت الجلال، بحيث كان مستغنياً عن غيره من جميع الوجوه، الذي قام بجميع المخلوقات في إيجادها وإعدادها وإمدادها، فكما لا وجود لها إلا بالله، فلا بقاء لها ولا صلاح إلا به، فهي مفتقرة إليه في جميع شئونها، لا يمكن أن تستغني عنه طريقة عين. ومن كمال قيوميته أنه كامل القوة

والقدرة، نافذ الإرادة والخشيعة، فعال لما يريد، قام بنفسه وقام به من سواه، فالحياة تستلزم الصفات الذاتية، والقيومية تستلزم الصفات الفعلية.

قال المصنف رحمه الله في «مدارج السالكين»^(١) في منزلة الحياة في أثناء كلام له: فيشهد قيام الكون كله بالله، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه، فإذا زسخ قلبه في ذلك شهد الصفة الصحيحة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيوية الصحيحة المصححة لجميع الأفعال، فالحي والقيوم من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد. انتهى.

هو قابض هو باسط هو خافض هو رافع بالعدل والميزان
يعني أنه القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، الباسط للأرزاق والرحمة والنفوس، وهو الخافض لأقوام، الرافع لآخرين، وذلك كله عدل من الله وحكمة، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْقِهُ وَيَنْظُرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة/ ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَرِزْقُ الْعَالَمِينَ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى/ ٢٧]. فقبحه نعمة في حق عباده المؤمنين، لأنه يمنعهم به من البغي والظلم والعدوان. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَنْصُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾

(١) ج ٣ ص ٢٦٩ مطبعة أنصار السنة.

[الرعد/ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر/ ١٠]، وقال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء/ ١٥٨].

وإن كان تعالى هو القايض الباسط الخافض الرافع قدراً وقضاء، فلا يمنع أن تكون هذه الأمور بأسباب من العباد، متى قاموا بها حصلت لهم، وهذا هو الواقع فإن الأسباب محل حكمته وسنته الجارية التي لا تبدل ولا تغير، وإذا كان أعظم أنواع رفعه رفعة لأوليائه إلى أعلى عليين في محل قربه والدنو منه، فهذا محال أن يدرك بدون الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي نَقَرْتُمْ عِنْدَ الرَّفْعِ إِلَّا مِنْ مَّامِنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا/ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْإِنْبَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [الطافين/ ١٨]، فجعل استحقاقهم لأعلى الأمكنة بسبب برهم، فكل قبض وسط وخفض ورفع قدره أو ديني فإنه من الله تعالى، لا انفراذه بالتدبير، وهذه من أنواع التدبير والشئون التي يصرفها بحسب حكمته وحملته.

وهو المعز لأهل طاعته وذا عز حقيقي بلا بطلان

وهو المذل لمن يشاء بذلة الدار ومن ذل شفا وذل هوان

يعني أنه المعز لمن يشاء المذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ مُؤْتِي الْمُلْكِ مَن قَشَاءَ وَرَازِقُ الْمُلْكِ بِمَنْ قَشَاءَ وَتُعْزِزُ مَنْ قَشَاءَ وَتُذِلُّ مَنْ قَشَاءَ﴾ [آل عمران/ ٢٦]، والعز الحقيقي الذي هو

عز ظاهر وباطن إنما يكون بالقيام بطاعته واتباع رسله. والذل الحقيقي إنما يكون بعدم القيام بطاعة الله، فإنه وإن وجد مع أهل المعاصي عز ظاهر وأبهةً دنيوية فإن ذلك محشو بالذل والهوان، فقد يشعر به صاحبه، وقد تغلب عليه الكثرة فلا يشعر بذلك، كما قال الحسن رحمه الله في أهل المعاصي: إنهم وإن طقطقت بهم البراذين، وهملجت بهم البغال، إن ذل المعاصي قد علاهم، أي الله إلا أن يدل من عصاه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشِركْ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ قُكُومٍ﴾ [الحج/ ١٨]، فالعاصي له الذل والشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَصَايَايَ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَصْحَابًا﴾ [طه/ ١٢٤]، وأما أهل العلم والإيمان فإن لهم العز والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يفترون بظاهر ما يعطاه المتفردون في الدنيا، ولا يقع في نفوسهم من ذلك شيء، كما قال أهل العلم والإيمان لمن غبط قارون على ما أوتي من زينة الدنيا، فقالوا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَوَابُ اللَّهِ غَيْرَ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص/ ٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَلْزِمِ الْعِزَّةَ بِجَمِيعٍ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ﴾ [فاطر/ ١٠]، أي من أراد العزة فإنها كلها لله تعالى، فليطلبها بطاعة الله والعمل الصالح والكلم الطيب، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المناقون/ ٨].

هو مانع معطي فهذا فضله والمنع عين العدل للمنتان

يعطي برحمته ويمنع من يشاء بحكمته والله ذو سلطان

يعني أنه تعالى المتفرد بالمعطاء والمنع، فلا مانع لما أعطى،

ولا معطي لما منع، فإن أعطى فيمحص فضله وإحسانه، لا يسب من العبد ولا يتقدم واسطة. وإن منع فيمحص عدله وحكمته. ومن أعظم عطائه عطاء الهدى والأمن والتوفيق للأعمال الصالحة، وليست بحول العبد وقوته، بل بتوفيق الله ومَنه ولطفه، يضعهما في المحل القابل لها الذي تصلح به، ويمتنعها من المحل الذي لا يليق بها ولا تصلح به ولا تزكو عليه، وليس منعه لعبده من التوفيق منعا لحق للعبد حتى يكون ذلك ظلما، وإنما هو محص فضله يمنعه ممن ليس له بأهل، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام/ ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأغفال/ ١٢٣].

والعطاء أحب إلى الله من المنع، وقد فتح للعباد من أبواب رحمته وخزائن جوده وعطائه كل باب، فيسر لهم كل طريق يوصل إلى ذلك، وأمرهم بسلوكها، فمن سلكها حصل له من الجود والعطاء ما لا يخطر بالبال ويدور في الخيال، ومن لم يسلكها بل سدّ دون نفسه أبوابها، وسلك الطرق التي تفضي به إلى الحرمان، فلا يلزم إلا نفسه.

فصل

والنور من أسمائه أيضًا ومن أوصافه سبحانه ذي البرهان قال ابن مسعود كلامًا قد حكاه الدرهمي عنه بلا تكرار ما عنده ليل يكون ولا نها ر قلت تحت الفلك يوجد ذات

نور السنوات العلى من نوره والأرض كيف الشمس والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله وكذا حكاية الحافظ الطبراني
فيه استنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان
وكتابه نور كذلك شرعه نور كذا الميموث بالفرقان
وكذلك الإيمان في قلب الفنى نور على نور مع القرآن
وحجابه نور قلوب كشف الحجاب ب لأحرق السباحات للأكوان
وإذا أنسى للفصل يشرق نوره في الأرض يوم قيامة الأبدان
وكذلك دار الرب جنات العلى نور تلالا ليس ذا بطلان
والنور ذو نوعين مخلوق ووصف سب ما همما والله متحدان
وكذلك المخلوق ذو نوعين محد سوس ومعقول هما شيخان
احذر تزل فتحت رجلك هوة كم قد هوى فيها على الأزمان
من غابك بالجهل زلت رجلك فهو إلى قعر الحضيض الداني
لاحت له آثار أنوار العبا دة فتنها الأنوار للرحمن
فأنى بكل مصيبة وبليّة ما شئت من شطح ومن هذيان
وكذا الحلولي الذي هو خذنه من ههنا حقًا هما أخوان
ويقال الرجلين ذو التعطيل والد حجب الكيف ما هما سيان

ذا في كشافه طبعه وظلامه وبظلمة التعطيل هذا الثاني
والنور محجوب فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على النور في هذا الفصل، لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفته الفرقان فيه. وحاصل ما ذكره أن من أسمائه وأوصافه «النور» الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان، وكتابه نور ورسوله نور، والإيمان الذي في قلوب المؤمنين نور، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا النَّاسُ فَذُكِّرْتُمْ بَرَهْنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء/ ١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة/ ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْتُورٌ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي زُجْجَةٍ الزُّجْجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ﴾ [النور/ ٣٥]، أي نور الإيمان على نور القرآن على نور الفطرة، وقال تعالى:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر/ ٦٩]، وحجابه تعالى نور كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» رواه مسلم^(١). وروى الطبراني عن

عبدالله بن مسعود أنه قال: «إن ربكم عز وجل ليس غنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه» الحديث. ولهذا قال المؤلف: قلت تحت الفلك يوجد ذان، أي الليل والنهار لا يوجدان إلا تحت الفلك الأسفل، لأنهما تبع لوجود الشمس وعدمها، وأما الملا الأعلى والعالم العلوي ففي غاية السعة والنور.

وقوله: وكذلك دار الرب نور تلالاً، يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا مشعر للجنة، فإنها لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور تلالاً، وريحانة تهتز، ونهر مطرد، وقصر مشيد، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، وفاكهة وخضرة وحيرة في أبد لا يزول، فقال القوم: نحن المشمرون لها، فقال: قولوا إن شاء الله، فقال القوم: إن شاء الله».

ثم ذكر المؤلف أن النور نوعان: نور وصف لله، وهو ما أطلقه على نفسه الكريمة في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وكما في قول النبي ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون»^(٢). وكما في قوله: «أحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٣). أي

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٢ مطبعة الحلبي.

(٢) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

(١) عن أبي موسى الأشعري.

لأحرق نوره وبهاؤه جميع المخلوقات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر/ ٦٩]، فهذا كله وصف لله تعالى. وكذلك كتابه تعالى نور، وكلامه صفة من صفاته.

أما النور المخلوق فهو نوعان: محسوس ومعقول، فالمحسوس الذي يدرك بالحواس ويرى عياناً، فهو نور الحجاب ونور الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الأنوار التي تدخل في قوله ﴿وَجَعَلَ أَفْطُكُنَّ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام/ ١]. وأما النور الذي لا يدرك بالحس وإنما هو معقول، فهو نور الإيمان وشواهد الإيقان ونور المعرفة وحقائق الذكر ونور المحبة، فهذا نور معقول يشرح الصدر، ويجعل صاحبه في جنة معجلة لا يشبهها شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ﴾ [النور/ ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ حَصِيْقًا حَرِيْبًا﴾ [الأنعام/ ١٢٥]، وكما كان النبي ﷺ يدعو في قيام الليل وفي الخروج إلى المسجد: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن فوقني نوراً، وتحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً، وزدني نوراً^(١)، فهذا النور يقوى بحسب المعرفة وقوة المحبة، وكثرة الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق العبادات.

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

ثم حذر المصنف رحمه الله في هذا المقام من اغترار من اغتر من جهلة المتصوفة والمتعبد، حين عملوا على الحقائق فاجتهدوا في التعبد، فاستنارت بذلك قلوبهم، وعظم الوارد إليها، فظنوا بجهلهم وظلمهم أن تلك أنوار الصفات للذات المقدسة، وتوهموا أن ما يجدونه في أذهانهم موجود في الخارج والعيان، فباحوا بالشطح والطامات الكبرى، وادعوا أنهم يشاهدون الله حقاً، بل ربما وصلوا إلى درجة الحلول، فظنوا أن الله حالٌ فيهم ومتصل بهم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. فالمتعبد إن لم يصحبه العلم والتمييز بين النور المخلوق وغيره طرق باب الحلول ولا يدرى ونسب ذلك قوة الوارد وضعف المورد وقلة العلم، فلهذا حذر المؤلف، فقال: احذر تزل فتحت رجلك هوة، أي حفرة تهوي بصاحبها إلى أسفل سافلين، كم قد هوى فيها على الأزمان، من عابد بالجهل زلت رجله، فهوى إلى قعر الحضيض الداني.

ثم ذكر السبب في قوله: لاحت له آثار أنوار العباد، ظنّها الأنوار للرحمن، أي ظنّها نور الذات من جهله، فأتى بكل مصيبة وبلية، ما شئت من شطح ومن هذيان. والشطح كلام الغلو الذي يجعل لنفسه منزلة ليست له، بل ربما جعل لها من خصائص الإلهية شيئاً، والهذيان الكلام الذي لا حاصل له، بل هو عبث وباطل.

ثم قال: وكذا الحلولي الذي هو خيذه أي نظيره ومثبه من هذا الوجه، فإن المتعبد تعرض له هذه الأمور في بعض الأوقات، وإن كان اعتقاده اللازم مخالفاً لذلك. وأما الحلولي فهو الذي

يعتقد حلول الإله - تعالى الله عن قوله - في بعض الأشخاص، كدعوى النصارى حلوله في عيسى بن مريم، ودعوى غلاة الراقصة حلوله في بعض أهل البيت، ودعوى كثير من المتصوفة حلوله العام أو الخاص، فكل هذا انحراف عن الضراط المستقيم الذي دلت عليه الكتب، ودعت إليه الرسل، وكفر وزندقة. فهؤلاء حصل لهم الانحراف من جهة الغلو.

ويقابل الرجلين أي جهلة المتعبدة والحلولية رجلان آخران:

أحدهما: المعطل لصفات الله تعالى، الذي ينقر القلوب عن معرفة ربه ومحبهه والإنابة إليه، فإن إثبات الصفات شرط لذلك، وهذا يسمى في تعطيلها وتحريفها ونفي حقائقها الثابتة، فهذا محجوب عن الله بتعطيله.

والثاني: صاحب الحجب الكثيفة، وهو الذي قد أعرض عن معرفة ربه، وغفل عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطاً، قد أقبل على شهوات نفسه ولذة جسمه، فقلبه مغمور بالشهوات، مصدود عن حقائق العبادات، فهذا يظلمه طبعه وشهوته ممنوع من نور القلب والأنس بربه والابتهاج بمحبته، لا يصل إليه النور حتى يفرغ قلبه من الشواغل الصادة عن مباشرة حقائق الإيمان إليه، ثم يجعل محبة الله هي غايته ومقصوده، وإرادة وجهه هي منتهى طلبه، ويجاهد نفسه على تخلفها بهذا الخلق الكامل، ويستعين بربه ويلتجئ إليه، فما حاب عبد أتمل جوده وإحسانه، وتسبب لذلك بما يصل إليه قدرته.

فصل

وهو المقدم والمؤخر ذاك الصفتان للأفعال تسابعتان
وهما صفات الذات أيضاً إذ هما
ولذلك قد غلط المقسم حين ظ
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا
والفعل والمفعول شيء واحد
فلذلك وصف الفعل ليس لديه
فجميع أسماء الفعال لديه ليس
موجودة لكن أمور كلها
هذا هو التعطيل للأفعال كالت
فالحق أن الوصف ليس بمورد الت
بل مورد التقسيم ما قد قام با
فهما إذا نوعان أوصاف وأد
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما
ومن العجائب أنهم ردوا على
فتان للأفعال تسابعتان
بالذات لا بالقير قائمتان
من صفاته نوعين مختلفان
د قيامها بالفعل ذي الإمكان
عند المقسم ما هما شيئان
إلا نية عدمية ببيان
ست قط ثابتة ذوات معاني
نسب ترى عدمية الوجدان
تعطيل للأوصاف بالمميزان
تقسيم هذا مقتضى البرهان
لذات التي للواحد الرحمن
عمال فهذه قمة التبيان
م الفعل بالموصوف بالبرهان
إن بين ذينك قط من فرقان
من أليت الأسماء دون معاني

قامت بمن هي وصفه هذا محال غير معقول لذي الأذهان
 وأنوا إلى الأوصاف باسم الفعل فأنظر إليهم أبطلوا الأصل الذي
 ردوا به أقوالهم بوزان إن كان هذا ممكنًا فكذلك هو
 والوصف بالتقديم والتأخير كوني وديني هما نوعان
 وكلاهما أمر حقيقي ونسبي ولا يخفى المثال على أولي الأذهان
 والله قدر ذلك أجمعه بإحكامه وإتقان من الرحمن
 أصل ما ذكر المصنف في تفسير المقدم والمؤخر أنه المقدم
 لمن يشاء من خلقه المؤخر له، والتقديم والتأخير نوعان: كوني
 قدري وديني شرعي، الأول متعلق بقدرته وحكمته. والثاني
 برحمته وقدرته وحكمته. فالأول لا يدل على رضاه ومحبه.
 والثاني يدل على ذلك. وحاصل الأول أنه المقدم لبعض المخلوقات
 على بعض في الخلق والرزق والتدبير، المؤخر لها في ذلك.
 وحاصل الثاني أنه المقدم بعض عباده على بعض في العلم
 والإيمان والفضائل الدينية وثواب ذلك، وكل من التقديم والتأخير
 حقيقي ونسبي، فالحقيقي أن يكون المخلوق مقدمًا مطلقًا أو
 مؤخرًا مطلقًا كونه أو دينًا. والنسبي أن يكون ذلك بالنسبة إلى ما
 دونه أو إلى ما فوقه.

وقول المؤلف: ولا يخفى المثال على أولي الأذهان.

أما التقديم والتأخير النسبي فظاهر في الكوني والديني، كتقديم
 الأب على الولد، وتقديم بعض القرون على بعض، وتأخيرها عما
 قبلها، وتقديم موسى في الفضل على غيره من الخلق سوى
 محمد وإبراهيم وتأخره عنهما، وتقديم من فضل غيره بصفة دينية
 على المفضول وتأخره عن الفاضل.

وأما التقديم والتأخير الحقيقي الديني فظاهر، فإنه على
 الإطلاق محمد ﷺ مقدم بالفضل على سائر الخلق، وإبليس على
 الإطلاق مؤخر على سائر الخلق، فإنه شر الخليقة قطعًا.

وأما التقديم والتأخير الكوني الحقيقي فهذا لا يدري مثاله إلا
 الله تعالى، لأننا لا نعلم ما أول ما خلق الله مطلقًا، ولا ندري آخر
 ما يخلق الله تعالى، بل لا سبيل لأحد من الخلق إلى علم ذلك،
 لأن الله لم يزل ولا يزال يفعل، لا مبتدأ لذلك ولا منتهى، فلا
 يحيط أحد من الخلق بشيء من ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أن المقدم والمؤخر من صفات
 الأفعال، وذكر الفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية، وأنها
 كلها تشترك بقيامها بالله تعالى، لا فرق في ذلك بين الصفات
 الذاتية كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحوها - وبين الصفات
 الفعلية كالاستواء والنزول والكلام والخلق وأنواع التدبير -
 فكلها قائمة بالله تعالى، لاستحالة وجود الفعل من غير أن يتصف
 به الفاعل، هذا محال عقلاً ونقلًا ولغة، فكيف يضيف تعالى إلى
 نفسه فعلًا وهو قائم بغيره، هذا من أبطل الباطل، ولكن الفرق بين

الصفات الذاتية والقعلية من جهة أن الصفات الذاتية لا ينفك عنها بوقت ولا حال من الأحوال، كالعالم الذي لا يمكن أن يفارقه بحال، وكالقدرة والغنى الذي هو من لوازم ذاته، وكالعلو على المخلوقات ونحو ذلك.

وأما الصفات الفعلية فضابطها هي كل صفة تعلقت بقدرته ومشيتته، التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ما تقتضيه الحكمة الربانية، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية أي المتعلقة بإرادته واختياره تعالى، وذلك كالكلام، فإنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وكيف شاء، لا يخلو وقت من الأوقات السابقة والأوقات اللاحقة التي لا تنتهي لها ولا غاية إلا وهو موصوف بأنه متكلم بما يشاء، بكلماته الدينية وكلماته القدسية، بل لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ممداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك الممداد، لنفدت ولم تنفذ كلمات الله، إذ هي غير مخلوقة ولا متتهية، وكذلك الخلق والتدبير والإحسان لم يزل تعالى بذلك موصوفًا وبالإحسان معروفًا، ولا يزال كذلك، ويدل على ذلك كل ما ورد في الكتاب والسنة من أنه قال كذا أو يقول كذا أو فعل كذا أو يفعل كذا مما لا يحاط بذكره لكثرتهم وانتشاره، ويدل على ذلك عقلًا أنه قد تقرر أنه تعالى كامل القدرة نافذ المشيئة لم يزل ولا يزال كذلك، ومن كان كامل القدرة تام الإرادة فكيف يخلو وقت من الأوقات أن يكون معطلًا عن فعله وكلامه المترتب على ذلك، وقد تقرر أيضًا أنه الكامل

من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومن المعلوم أن الكمال إنما يكون باتصافه كل وقت أنه يقول ويفعل ما يشاء، فإنما لو فرضنا أن يكون معطلًا في وقت من الأوقات عن أفعاله لكان ذلك نقصًا، يتعالى عنه الرب العظيم الكامل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

فهذا التقسيم بين صفات الذات وصفات الأفعال هو الحق الذي تدل عليه الأدلة والبراهين، فليس الوصف مورد التقسيم، فإنها كلها قائمة بالله قد اتصف بها، وإنما مورد التقسيم ما قد قام بذات الله من الصفات اللازمة التي لا ينفك عنها أبدًا، والصفات المتعلقة بقدرته ومشيتته وهي الصفات الفعلية.

ثم أنكر المصنف على من قسمها غير هذا التقسيم، ممن يتسبب إلى الأشعري وغيره من أهل الكلام، أن لم يرد ما ذكره من هذا التقسيم، بل أرادوا أن صفات الأفعال لم تقم بالله ولم يتصف بها، وزعموا أن ذلك يقتضي حلول الحوادث في ذات الله، فنقوا بهذا اللفظ كل صفة فعلية، فأنكروا استواءه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وأفعاله التي يوجد بها شيئًا فشيئًا، وبنوا على هذا أن الكلام عبارة عن المعنى النفسي القديم الذي لا يعقل، ونقوا أن يكون متكلمًا في كل وقت بما شاء وإذا شاء، وهذا تعطيل لأفعال الله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين.

ولهذا تعجب المصنف من الأشعرية الذين أثبتوا الصفات

الذاتية، وأنكروا غاية الإنكار على الجهمية الذين أثبتوا الأسماء دون المعاني والصفات، وحقيق بهم أن ينكروا عليهم، فإن إثبات الأسماء دون المعاني باطل عقلاً ونقلاً، ولكن الأشعرية نقضوا أصلهم الذي ردوا به على الجهمية في صفات الأفعال، وعطلوا الأفعال التي وصف الله بها نفسه ووصفها رسولها، فتناقضوا في هذا الأصل، فاستطالت عليهم الجهمية بما سلموه لهم من الأصل الذي نفوا به الأفعال لله، وقالوا: الفعل هو المفعول، فحرفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزلوها على هذا الأصل الذي أصلوه، وهو أن الفعل هو المفعول، وهذا باطل في الشرع، لمناقضته له، فاسد في العقل، لأنه محال أن يوجد مفعول بدون فعل متصف به الفاعل.

ولهذا ألزمهم المؤلف أنه إن كان قولكم هذا ممكناً على الفرض والتقدير، فكذلك قول خصومكم الجهمية في أصلهم الذي ردوا به صفات الله يكون ممكناً، وإن كان قول خصومكم باطلاً، فقولكم أيضاً باطلاً، إذ لا فرق بينهما بوجه من الوجوه.

وقول المؤلف في حكايته لقول هذه الطائفة: فلذلك أي لأجل أن الفعل والمفعول شيء واحد عندهم، ليس وصف الفعل عندهم إلا نسبة عدمية الوجدان، أي تنسب إليه باللفظ وهي مفقودة فيه، وهكذا سائر صفات الأفعال، وهل أعظم من هذا التعطيل وأبطل من قول يلزم منه تعطيل الأفعال عن فاعل لها، وتعطيل الكلام عن المتكلم فيه، فالوصف بالفعل يستدعي قيامه بالمتوصوف قطعاً.

والذي أوجب لهذه الطائفة التافية لصفات أفعاله أنهم ظنوا أن إثباتها يقتضي الحدوث لها، فإذا كانت حادثة كان من قامت به حادثاً أيضاً، وهذا غير لازم لإثباتها، فإنه لم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة الكاملة على الأقوال والأفعال، ومشيئته أيضاً نافذة لا مانع لها بوجه من الوجوه، وحدوث أفعاله وأقواله شيئاً فشيئاً لا محذور فيه، بل هو الكمال كما تقدم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١): وأما قول القائل لو قامت به الأفعال لكان محلاً للحوادث، والحادث إن أوجد له كمالاً فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن لم يوجب له كمالاً لم يجز وصفه به. فيقال أولاً: هذا معارض بتظيرة من الحوادث التي يفعلها، فإن كليهما حادث بقدرة ومشيئة، وإنما يفرقان في المنحل، وهذا التقسيم وارد على الجهتين.

وإن قيل في الفرق: المفعول لا يتصف به، بخلاف الفعل القائم به.

قيل في الجواب: بل هم يصفونه بالصفات الفعلية، ويقسمون الصفات إلى فعلية ونفسية، فيصفونه بكونه خالقاً رازقاً بعد أن لم يكن كذلك، وهذا التقسيم وارد عليهم، وقد أورده عليهم الفلاسفة في مسألة حدوث العالم، فزعموا أن صفات الأفعال ليست صفات

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٠٥ - ١٠٨.

كمال ولا نقص.

فيقال لهم كما قالوه لهؤلاء في الأفعال التي تقوم به أنها ليست كمالاً ولا نقصاً.

فإن قيل لا بد أن يتصف إما بنقص أو كمال، قيل: ولا بد أن يتصف من الصفات الفعلية إما بنقص وإما بكمال، فإن جاز ادعاء خلو أحدهما عن القسمين أمكن الدعوى في الآخر مثله، وإلا فالجواب مشترك.

وأما المتفلسفة فيقال لهم: القديم لا تحله الحوادث، ولا يزال محلاً للحوادث عندهم، فليس القدم مانعاً من ذلك عندهم، بل عندهم هذا هو الكمال الممكن الذي لا يمكن غيره، وإنما نفوه عن واجب الوجود لظنهم عدم اتصافه به.

وقد تقدم التنبيه على إبطال قولهم في ذلك، لاسيما وما قامت به الحوادث المتعاقبة بمتنع وجوده عن علة تامة أزلية موجبة لمعلولها، فإن العلة التامة الموجبة يمتنع أن يتأخر عنها معلولها أو شيء من معلولها، ومتى تأخر عنها شيء من معلولها كانت علة له بالقوة لا بالفعل، واحتاج مضيرها علة بالفعل أو بسبب آخر، فإن كان المخرج لها من القوة إلى الفعل هو نفسه صار فيه ما هو بالقوة هو المخرج له إلى الفعل، وذلك يستلزم أن يكون قابلاً وقاعلاً، وهم يمنعون ذلك لامتناع الصفات التي يسمونها التركيب.

وإن كان المخرج له غيره كان ذلك مستتباً بالضرورة والاتفاق،

لأن ذلك ينافي وجوب الوجود، ولأنه يتضمن الدور العمي والتسلسل في المؤثرات، وإن كان هو الذي صار قاعلاً للمعين بعد أن لم يكن امتنع أن يكون علة تامة أزلية، فقدم شيء من العالم مستلزم كونه علة تامة في الأزل، وذلك يستلزم أن لا يحدث عنه شيء بوسط وبغير وسط، وهذا مخالف للمشهور.

ويقال أيضاً ثانياً في إبطال قول من جعل حدوث الحوادث منتعاً: هذا مبني على تجدد هذه الأمور بتجدد الإضافات والأحوال والأعدام، فإن الناس متفقون في تجدد هذه الأمور، وفرق الآمدي بينهما من جهة اللفظ، فقال: هذه حوادث وهذه متجددات، والفروق اللفظية لا تؤثر في الحقائق العلمية.

فيقال: تجدد هذه التجددات إن أوجب له كمالاً فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن أوجب له نقصاً لم يجز وصفه به.

ويقال ثالثاً: الكمال الذي يجب اتصافه به هو الممكن الوجود، وأما الممتنع فليس من الكمال الذي يتصف به موجود. والحوادث المتعلقة بقدرته ومشيتته يمتنع وجودها جميعاً في الأزل، فلا يكون انتفاؤها في الأزل نقصاً، لأن انتفاء الممتنع ليس بنقص.

ويقال رابعاً: إذا قدر ذات تفعل شيئاً بعد شيء وهي قادرة على الفعل بنفسها، وذات لا يمكنها أن تفعل بنفسها شيئاً، بل هي كالجناد الذي لا يمكنه بحال أن يتحرك، كانت الأولى أكمل من الثانية، فعدم هذه الأفعال نقص بالضرورة، أما وجودها بحسب

الإمكان فهو الكمال.

ويقال خامساً: لا نسلم أن عدم هذه مطلقاً نقص ولا كمال، ولا أن وجودها مطلقاً نقص ولا كمال، بل وجودها في الوقت الذي اقتضت مشيئته وقدرته وحكمته وجودها فيه هو الكمال، ووجودها بدون ذلك نقص، وعدمها مع اقتضاء الحكمة عدمها كمال، ووجودها حيث اقتضت الحكمة وجودها هو الكمال.

وإذا كان الشيء الواحد يكون وجوده تارة كمالاً وتارة نقصاً، وكذلك عدمه، بطل التقسيم المطلق، وهذا كما أن الشيء يكون رحمة بالخلق إذا احتاجوا إليه كالمطر، ويكون عذاباً إذا ضرهم، فيكون إزاله عند حاجتهم رحمة وإحساناً من المحسن الرحيم، متصف بالكمال، ولا يكون ترك إزاله حيث يضرهم نقصاً، بل هو أيضاً رحمة وإحسان، فهو محسن بالوجود حيث كان رحمة، وبالعدم حيث كان العدم رحمة. انتهى كلامه رحمه الله.

وقد برهن فيه بالدليل العقلي ما به يتبين الحق المبين، فجزاه الله خيراً وأحسن إليه الجزاء. والمقصود أنه تبارك وتعالى هو المقدم المؤخر قدرًا وشرعًا تقديمًا وتأخيرًا تابعًا لحكمته وحمده تعالى.

فصل

اعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب، ومالم يذكره منها فإنه ذكر نظيره أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر «المتين» وهو في معنى

القوي القدير، ولم يذكر «الأعلى» وهو في معنى العلو، ولم يذكر «الرحمن الرحيم الرؤوف» وهي في معنى البر الجواد الوهاب، ولم يذكر «الرب والله والملك المالك».

وقد ذكر في «البدائع» أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى، فقال^(١): «الرب» هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المتعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما «الملك» فهو الأمر الناهي المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر الحكيم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحبيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما «الإله» فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فتدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيويه وجمهور أصحابه

(١) ج ٢ ص ٢٤٩.

إلا من شئ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، فقد شملت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى. انتهى.

فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفرد بل يقال إذا أنى بشران وهي التي تدعى بمزدوجاتها أفرادها خطر على الإنسان إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب كالمانع المعطي والضرار الذي ونظير هذا القابض المقرون باسم كذا المعز مع المذل وخافض وحديث أفراد اسم منتقم نمو ما جاء في القرآن غير مقيد قال المصنف في «بدائع الفوائد»^(١): أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقتربًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزیز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا أو مقتربًا بغيره، فنقول: يا عزيز يا حكيم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد

(١) ج ١ ص ١٦٧.

كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخير عنه به، يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضرار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضرار النافع، العفو المنتقم، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتسيير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يشي عليه بمجرد المنع والانتقام والاضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع، أو أخبرت بذلك، لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابله. هذا كلامه رحمه الله، وهو شرح لهذه الآيات التي ذكرها هنا.

وقوله: ولم تطلق عليه إلا مقترنة، وهنا قال: وحديث أفراد اسم منتقم فموقوف، كما قاله أهل المعرفة، فإن الثابت في الصحيحين^(١): «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة». ولم يذكر عددها، وإنما ذكرت في رواية الترمذي مرفوعة

(١) من حديث أبي هريرة.

وموقوفة، والموقوف أصح، فإذا كان موقوفاً لم ينغض هذه القاعدة. وأما مجيء المنتقم في القرآن فإنه لم يطلق عليه إطلاقاً، وإنما قيده الله بالانتقام من المجرمين في قوله ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِمُونَ﴾ [السجدة/ ٢٦].

وجاء في القرآن بلفظ «ذو» نوعان يحتمل أنه في موضعين، ويحتمل أنه نوعان أي نوع مقيد بالمجرمين، ومرة لم يقيد بذلك، كما في قوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران/ ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة/ ٩٥]. وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ مَأْغِرَةً لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ﴾ [الأعراف/ ١٣٦]. وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ الَّذِينَ لَجَرُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٤].

فصل

ودلالة الأسماء أنواع ثلث	ث كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضمنت	وكذا التزاماً واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهي أن	الاسم يفهم منه مفهوم
ذات الإله وذلك الوصف الذي	يشق منه الاسم بالميزان
لكن دلالاته على إحداهما	بتضمن فافهمه فهم ببيان
وكذا دلالاته على الصفة التي	ما اشتق منها فالتزام دان
وإذا أردت لهذا مثلاً بيتاً	فمثال ذلك لفظة الرحمن

ذات الإله ورحمة مدلولها فهما لهذا اللفظ مدلولان
إحداهما بعض لذا الموضوع فهي تضمن ذات واضح البيان
لكن وصف الحي لازم ذلك الـ فمعنى لزوم العلم للرحمن
فلذا دلالاته عليه بالتزام بين والحق ذو تبيان

هذه القاعدة التي ذكرها المصنف ليست خاصة بدلالة الأسماء الحسنى على معانيها، بل عامة في جميع الألفاظ بالنسبة لمدلولاتها، وضابط ذلك أن الدلالة نوعان لفظية وعقلية.

فاللفظية إما أن تعطي الألفاظ كل ما تناولته من المعاني والأوصاف، فتسمى دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص. وإما أن تعطي الألفاظ بعض ما تناولته من المعاني، فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى بعض اللفظ وداخل في ضمته.

وأما الدلالة العقلية فهي خاصية العقل والفكر، لعدم دلالة اللفظ بمجردة عليها وإنما ينظر العقل في ذلك المعنى الذي دل عليه اللفظ، وما يلزمه من المعاني الخارجية، وما يشترط له من الشروط التي لا يتم بدونها، فهذه قاعدة أصولية تجزي في جميع الألفاظ، وتعتبر في كل موضع.

وذكر المصنف هنا ما يتعلق بالأسماء الحسنى، فأخبر أن الاسم من أسمائه الكريمة إن دل على الذات الإلهية والوصف الذي اشتق منها فدلالته دلالة مطابقة، وإن دل على أحد الأمرين

إما الذات وحدها أو الصفة وحدها فدلالته دلالة تضمن، وإن دل على صفة أخرى لازمة لما دل عليه فدلالة التزام.

ومثال ذلك من الأسماء الحسنى لفظة «الرحمن»، فإن دلالاته على ذات الإله وعلى رحمته الواسعة دلالة مطابقة، ودلالته على الذات وحدها أو على الرحمة وحدها دلالة تضمن، ودلالته على الحياة الكاملة وعلمه المحيط دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وعلمه بحال المرحوم وما يوصل إليه من الرحمة. وكذلك ما تقدم من استلزام الملك جميع صفات الملك الكامل الذي لا يتم بدونها، واستلزام الرب جميع صفات الربوبية، واستلزام الإله جميع صفات الإلهية، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصبو.

وحيث ذكر المصنف هذه القاعدة المتعلقة بأسمائه الحسنى، فلنصف إلى ذلك عدة قواعد تتعلق بالأسماء والصفات تنميًا للفائدة، ذكرها في «بدائع الفوائد». قال رحمه الله^(١): فائدة جلية: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمينه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض. كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة، بل دال على معاني لا على معنى مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من انصاف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه استمد المرخ والغفار، وأمد التافة علقاء، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إلى الله، ومنه الحديث الذي في المستند والترمذي^(٢): «الظوا يباذا الجلال والإكرام». ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المثنان يدع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام»^(٣). فهذا سؤال له وتوسل

(١) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. وهو حديث صحيح.

إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المستول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

فلنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قلت: وقد تقدم ذلك في الصمد.

ثم قال: السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغني صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من عناء وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما. وكذلك العفو القدير، والحمد المجيد، والعزیز الحكيم، فتأمل فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن يكون متضمنة لثبوت، كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبرائه من كل نقص يناقض كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتاً، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُكُمْ سُنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فإنه متضمن لكمال حياته وقبوميته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسْكَاةٍ لِلْعُوبِ﴾ [ق/ ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك ﴿وَمَا يَقْرُبُ عَنْ رَبِّكَ يَنْفَالِدُ ذَرْبُكَ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا

فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس/ ٦١] متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ﴾ [الإخلاص/ ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص/ ١٤] متضمن لتفرد بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام/ ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإن هذا يخبر به عنه، ولا يدخل في باب أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمرید والصانع والفاعل، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فيجعل من أسمائه الحسنى: المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه

الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة.

الرابع: أن أسماء الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف فيها لا يتنافى العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، وفاندها العلمية المخضعة، بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى بالضرورة.

السادس: أن أسماء الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا، نحو السميع البصير القديم، يطلق عليه منه اسم السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو قد سمع الله، فقدرتنا فنعم القادرون، هذا إن كان

الفعل متعديًا، فإن كان لازميًا لم يخبر عنه به، نحو النحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: نحى.

التاسع: أن أفعال الرب تعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم. فالرب تعالى فعالة عن كماله، والمخلوق كماله عن فعالة، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. والرب تعالى لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمّل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباطاً مقتضي بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، ولهذا كله حسن، لا يخرج عن مصالح العباد والرفقة والرحمة بهم والإحسان إليهم بشكملهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماءه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماءه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً ولا سدى، وكما أن كل موجود سواء بإيجاده، فوجود من سواء تابع لوجوده، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسمائه كما ينبغي للمخلوق أحصى

جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضياتها ومرتبطة بها. فتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماء كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً. وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق الرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها، لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسمائه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق في ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المبين له، لا بفعله الذي هو فعله. فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسماء الله تبارك وتعالى التي من أحصاها دخل الجنة، هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومداركها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف/ ٢١٨٠)، وهو مرتبتان: إحداهما دعاء ثناء وعبادة، والثانية: دعاء طلب ومسألة، ولا يشئ عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم وجدها مطابقة لهذا. إلى أن قال:

الثالث عشر: اختلف النظر في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والعزيز والملك ونحوها:

فقال طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أحيث الأقوال.

الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئة.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول الأكثرين، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

وليس هذا موضع التعرض لما أخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها

في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب أو بالعبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً إلى الرب مختصاً به.

الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتاً للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد ما يليق به، وهذا كاسم «السميع» الذي يلزمه إدراك السموعات، و«البصير» الذي يلزمه رؤية المبصرات، و«العليم» و«القدير» وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحققاتها للموصوف بها كما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله، ومن أثبت له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برىء من قرئ التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وبالزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم من علوه من احتياجه إلى ما هو عال

عليه وكونه محمولاً به مفتقراً إليه محاطاً به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خيراً، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآتين اللتين هما أصل يلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقاً من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهيهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أربعة أمور: أمران لفظيان، وأمران معنويان، فاللفظيان ثبوتي وسلبى، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبى أن يمتنع الاشتقاق لغيره. والمعنويان ثبوتي وسلبى. فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبى أن لا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خيراً عنه.

وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات. فلنذكر من ذلك مثلاً واحداً وهي صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كان هو المتكلم دون من لم يقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه

دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وحاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفقة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصل أهل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بحد. إلى آخر ما ذكره مما تقدم مضمونه، ومما سيأتي له تتمته في الفصل بعده.

فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين،

وذكر انقسام الملحدين

والمقصود من هذا الفصل حفظ أسماء الله وأوصافه عن أن تحرف أو تغير، أو ينقص منها شيء، أو يبخس من كمال شيء من أوصافه، أو تعطل أو تمثل، ولهذا ذكر الأصل الجامع في هذا بقوله:

أسماءه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حملت لمعاني يعني أن أسماءه كلها أوصاف مدح وحمد وثناء، وهي مشتقة من معانيها ثابتة له حقائقها، ولذلك كانت حسنى، فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولو كانت دالة على نقص أو بعضها دالاً على ذلك لما كانت كلها حسنى، ولهذا إذا كان الوصف

محملاً للمدح ولغيره لم يدخل بمطلقه في أوصاف الله وأسمائه، كالمريد والصانع والفاعل ونحو ذلك.

قال المصنف في «البدائع»^(١):

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً. وإن كانت التسمية التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالاً ونقصاً باعترارين، والرب تعالى منزّه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، فصفاؤه كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيرها ليس تفسيرًا بمرادف محض، وهو على سبيل التقريب والتفهم. وإذا عرفت هذا فله تعالى من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأزهره عن شائبة عيب أو نقص. انتهى.

إياك والإلحاد فيها إنه كفر معاذ الله من كفران وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران فالملحدون إذاً ثلاث طوائف فعليهم غضب من الرحمن بين أن أسماءه تعالى كلها أوصاف مدح، حذر مما ينافي ذلك

(١) ج ١ ص ١٦٧.

وهو الإلحاد، وأخير أنه كفر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف/ ١٨٠)، وإنما كان الإلحاد فيها كفراً لأنه رد لما أخبر الله به ورسوله من صفات الله المقدسة ونعوته الكاملة، بالميل فيها بالإشراك فيها، وجعلها له ولغيره، كما يفعله المشركون، أو نفي معانيها وحقائقها كما يفعله المعتطفة، أو إنكارها كاملة كما يفعله الزنادقة.

ولهذا أخبر المصنف أن الملحدين منقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهم حل عليهم غضب الله وعذابه.

قال في «بدائع الفوائد»^(١):

العشرون: وهو الجامع لما تقدم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف/ ١٨٠)، والإلحاد فيها هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة (ل ح د)، فمئة اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحّد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحّد المائل عن الحق المدخل فيه مالمس منه، ومنه الملحّد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنَ دُونِهِ مُتَسَلِّكًا﴾ (الكهف/ ٢٧)، أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تبارك وتعالى أنواع: أن يسمى الأصنام بها لتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيزة، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا الإلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، ولهذا قال هنا:

المشركون لأنهم سموها أوثانهم قالوا إله ثانى
هم شبهوا المخلوق بالخلق عكس شبه الخلاق بالإنسان

أي يدخل في الإلحاد في أسماء الله من جهة التشريك في التسمية المشركون الذين شبهوا المخلوقات الناقصات من جميع الوجوه بالخالق الرب العظيم الكامل من كل وجه، فسموها آلهة ونحلوا لها من أسماء الله ما نحلوا، كما تقدم، ويدخل فيه أيضاً المشبهة من غلاة الرافضة واليهود الذين شبهوا الخالق تعالى بالمخلوق، فحملوا ما جاءت به نصوص الأنبياء من أوصاف كماله على ما يعقلونه من صفات المخلوقين، وأعطوا صفاته خصائص صفات المخلوقين، وهذا من أعظم الإلحاد في أسمائه وآياته.

وكذلك أصل الاتحاد فيهم إخوانهم من أقرب الإخوان
أعطوا الوجود جميعه أسماء إذ كان عين الله ذا السلطان

(١) ج ١ ص ١٦٩.

والمشركون أقل شركاً منهم هم خصصوا ذا الاسم بالأوثان
ولذلك كانوا أهل شرك عندهم لو عصبوا ما كان من كفران
أي وكذلك يدخل في هؤلاء الملحدين الذين شركوا بين
المخلوقين والخالق ببعض الصفات أهل الاتحاد، الذين عم شرهم
وطغى كفرهم وتلطفوا غاية التلطف إلى إضلال الناس بكفرياتهم
الشيعة، التي لو أظهروها على صورتها وحقيقتها لرأى الناس منها
إنكار رب العالمين جملة، وإنكار الرسل والكتب جملة، وإنكار
المعاد والبعث بعد الموت، ولذلك اتفق العارفون بأقوالهم أنهم
أكفر من اليهود والنصارى والمشركين.

ومن أكبر العجب اغترار كثير ممن يتنسب إلى الإسلام بهذا
المذهب الخبيث، وتعظيمهم لأهل هذا المذهب حتى أدخلوه في
كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم. وحقيقة مذهبهم أن جميع العالم العلوي
والسفلي شيء واحد متحد بعضه ببعض، وإن تباينت أجزأه
وتفرقت أحواله، فما ثم خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا مريبوب،
ولا واجب الوجود وممكن الوجود، بل الخالق نفس المخلوق،
والرب نفس المريبوب، والعبد نفس المعبود، وجعلوا لله كل صفة
مدحوة ومذمومة، إذ كان هو الممدوح المذموم، تعالى الله عن
قولهم علواً كبيراً، فإنهم أعظم الملحدين في أسماء الله وصفاته.
والمشركون أقل شركاً منهم، لأنهم خصصوا معبوداتهم من الأصنام
والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء الملاحدة أعطوا جميع الموجودات

أسماء الله وأوصافه، إذ كان أصل مذهبهم أن الله هو عين هذه
الموجودات، قالوا: وإنما كفرنا المشركين لأنهم خصصوا الإلهية
ببعض المخلوقات، ولو عصبوا فجعلوا كل موجود إلهاً ما أشركوا
ولا كفروا.

فتباً لهم ما أضلهم وأعماهم، حيث أنكروا وجود واجب
الوجود الرب العظيم الملك الكبير، واشتبه عليهم بوجود هذه
المخلوقات الممكنات التي ليس لها من أنفسها إلا العدم عدم
الوجود وعدم الكمال، وهذا القول يكفي في زده مجرد تصويره،
فإن فساده معلوم بضرورة العقل والشرع. والمقصود أن هؤلاء
الملاحدة من الذين ألدوا في أسماء الله، وجعلوها لساير
المخلوقات، كما خصها المشركون ببعض المخلوقات.

والملاحدة الثاني فذو التعطيل إذ ينفي حقائقها بلا برهان
ما ثم غير الاسم أوله بما ينفي الحقيقة نفي ذي بطلان

هذا القسم الثاني من الملحدين في أسماء الله، وهم المنعطة
لأسماء الله، النافين لحقائقها ومعانيها بلا برهان، ولا حجة إلا
أهوية وآراء فاسدة لا تسمن ولا تغني من جوع، فلا يشبئون لله إلا
أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليهم بلا علم، سمع بلا
سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، وإن أثبتوا لها معنى أولوها
بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله لم يردها،
بل أرادا غيرها، ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشعرية

والماتريدية في الصفات الفعلية الخيرية، فإن مسلكتهم فيها كمسلكتك
الجهمية في الصفات الذاتية.

قال في البدائع^(١): ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد
حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ محدودة
لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير
والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون لا حياة له ولا سمع
ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها
عقلاً ولغة وشرعاً وفطرة، وهو مقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك
أعطوا أسماء وصفاته لألهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله،
وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فيهم العالي
والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه
أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.
انتهى. وقوله:

فالقصد دفع النص عن معنى الـ	تحقيقة فاجتهد فيه بلفظ بيان
عطيل وحرف ثم أول وانفها	واقذف بتجسيم وبالكفران
للمثبتين حقائق الأسماء والـ	أوصاف بالأخبار والقرآن
فإذا هم احتجوا عليك فقل لهم	هذا مجاز وهو وضع ثاني

(١) ج ١ ص ١٦٩.

فإذا غلبت عن المجاز فقل لهم لا يستفاد حقيقة الإيمان
أنى وتلك أدلة لفظية عزلت عن الإيمان منذ زمان

يعني أن القصد من هذا المعطل الملحد دفع نص الكتاب
والسنة الوارد في صفات الله ونعوته، فهو مجتهد بدفعه غاية ما
يمكنه بكل ما يقدر عليه، فيتوسلون إلى هذا المقصد الباطل
بتعطيل المعاني الصحيحة وتحريفها، أي تعويضها إلى معاني
باطلة، فينفي المعنى الحق ويثبت المعنى الباطل، ثم ما يكفيهم
هذا حتى يقدفوا أهل الحق المثبتين حقائق أسماء الله وصفاته على
ما جاءت به النصوص بالتجسيم والتكفير، لينتفروا من قولهم
ويقبحوه بما وضعوا لهم من الأسماء الباطلة، ويسمعون أنفسهم
أهل الحق ومقاتلهم هي التنزيه قلبي للحقائق، كما قال الله تعالى:
﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رُخُوفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام/ ١١٢].

فإذا هم ناظروا أهل السنة والجماعة عرفوا أن نصوص الكتاب
والسنة مع أهل السنة، فيوصي بعضهم بعضاً، فيقولون: إذا احتجوا
عليكم فقولوا لهم: هذا مجاز، والمجاز هو ما وضع ثانياً، وليس
المراد به ما يفهم منه، فإذا تمكنتوا من هذا صالوا به وجالوا، فإذا
غلبوا عن المجاز وأتاهم من الحقائق مالا قبل لهم به، ولا يمكن
دعوى المجاز به كما هو جلي في نصوص الأسماء والصفات،
لجئنا إلى قاعدة لهم خبيثة باطلة، وهي أن النصوص أدلة لفظية لا
تفيد الحق واليقين، وإنما تفيد غلبة الظن، وبزعمهم أن الذي يفيد
اليقين هو آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة، فإذا أتت النصوص

مخالفة لما استقر في قلوبهم رأوا من اللازم صحتها عن المراد بها موافقة لما يعتقدونه .

وقد غلطوا في هذا أكبر الغلط وأفحشه ، فإن نصوص الكتاب والسنة في أعلى رتب الحق واليقين ، وهي أرفع أنواع الصدق ، فإنها كلام الله الذي لا أضدق منه قبيلاً ولا أحسن منه حديثاً ، وكلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . ومع ذلك فقد أيد الله ورسوله ما أخبروا به من الحق بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ، التي لا تبقى في قلب مريد الحق والهدى أدنى ريب .

وغاية ما يوجد عند المتكلمين من المعقولات والبراهين جزء يسير مما اشتمل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، بل لا يمكن أن يوجد في الكتاب والسنة مسألة واحدة مخالفة لما يعلمه العقلاء أهل البصائر النافذة . بل أدلة المعقول موافقة لأدلة المنقول ، فكيف يقول القائل : إنها أدلة لفظية لا تفيد اليقين ، سبحانه هذا بهتان عظيم ، يلزم منه بطلان أخباره وأوامره ونواهيه والكفر برب العالمين رأساً ، فإنه لا يشاء متأول أن يتأول إذا فتحت لهم هذه القاعدة الشنعاء ، والمقالة التي لم يسبق المتكلمين بها أحد من رسل الله ولا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

ثم إن للمتكلمين أصلاً آخر إليه يفزعون عند تراجم النصوص عليهم ، وبه يتحصنون عن أدلة الكتاب والسنة ، ذكره بقوله .

فإذا تضافرت الأدلة كثيرة	وغلبيت عن تقرير ذا بيان
فعلبك حيثما بقانون وضعت	ساء لدفع أدلة القرآن
ولكل نص ليس يقبل أن يأ	ول بالمجاز ولا بمعنى ثاني
قل عارض المنقول معقول وما	الأمران عند العقل يتفان
ما ثم إلا واحد من أربع	مقابلات كلها بوزان
إعمال دين أو عكسه أو تلغي الـ	معقول ما هذا بلدي إمكان
العقل أصل النقل وهو أبوه إن	تبطله يبطل أصله التحتاني
لتعين الإعمال للمعقول والـ	إلغاء للمعقول بالقانون ذي البرهان
إعماله يفضي إلى إلغاء	فاهجره هجر الشرك والنسيان

يعني أن المتكلمين يصلون بهذا القانون الباطل على دفع أدلة الكتاب والسنة ، وحاصل تقريره : أنهم يقولون إذا تعارض العقل والنقل فلا بد من واحد من أربعة أمور : إما أن يعمل كلاهما ، أو يلغيا ، أو يعمل النقل ويلغى العقل ، أو يعمل العقل ويلغى النقل . وعندهم أن الأقسام الثلاثة الأولى غير ممكنة ، وأنه يتعين القسم الرابع ، وهو إعمال المعقول وإلغاء المنقول ، وذلك أن إعمالها مع التعارض غير ممكن ، فإنهما لو أعملا والحالة هذه لم يكن تعارض ، والغاؤه أيضاً غير ممكن ، لأنه يلزم منه إبطال العقل والنقل ، وإعمال النقل مع إلغاء العقل غير ممكن على زعمهم ، لأن إعمال النقل يقتضي إلغاءه ، فإن النقل لم يعرف إلا بالعقل ، فهو الطريق

لثبوته على زعمهم، فإذا قدحنا في الأصل الذي هو العقل لزم القدح فيما يتفرع عنه وهو النقل، فتعين حينئذ إعمال العقل وإلغاء النقل بهذا القانون الفاسد، ووجب أن توزن به نصوص الكتاب والسنة.

وهذا التقسيم الذي حصروه بهذه الأقسام والحكم الذي حكموا به باطلان عقلاً وشرعاً، وقد تصدى لإبطاله الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه «العقل والنقل»^(١)، فقال لما ذكر تقسيمهم هذا: والمقصود هنا الكلام على قول القائل إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية إلى آخره. والكلام على هذه الجملة بني على بيان ما في مقدمتها من التليس، فإنها مبنية على مقدمات: أولها: ثبوت تعارضهما، والثانية: انحصار التقسيم فيما ذكره من الأقسام الأربعة، والثالثة: بطلان الأقسام الثلاثة. والمقدمات الثلاثة باطلة.

وبيان ذلك بتقديم أصل، وهو أن يقال: إذا قيل: تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً، وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي

(١) ج ١ ص ٧٨ طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود.

هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالة باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال، بل كلما يعتد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلا بد أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين. وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يدفع اليقين. وأما إن كانا جميعاً ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعياً أو عقلياً.

ثم أطال الكلام بما يشفي ويكفي، رحمه الله تعالى.

ولما كان كلام المؤلف عن المتكلمين يذكر هذا القانون يوهم نوع مبالغة دفع هذا الوهم بقوله:

والله لم تكذب عليهم إنما وهم لدى الرحمن مجتزمان
وهناك يجرى الملحدون ومن نفى الإلحاد يجرى ثم بالغفران
ولعله أخذ من قوله تعالى: ﴿وَدْعُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَكَ فِي آسَافِهِمْ
مَسِيحُورُونَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٨٠]، فالملحدون يجرؤن
بالعقاب الويل، والمثبون لله الأسماء والصفات النافين للإلحاد
الملحدون يجرؤن هناك بالغفر والغفران والخلود في الجنة وويل
أعلى الكرامات.

فاصبر قليلاً إنما هي ساعة يا مثبت الأوصاف للرحمن
فلنوف تجني أجر صبرك حين يجني الغير وذر الإثم والعدوان
فإله سائلنا وسائلهم عن الـ إثبات والتعطيل بعد زمان
فأعد حيث جواً كافياً عند السؤال يكون ذا تبيان
يُرَغَّب رحمه الله المثبت لصفات الله على صبره على ذلك،
ولو كثر المخالفون ورأى منهم المعارضة والمعاكسة، فإن الصبر
عاقبته حميدة، خصوصاً في المحن التي مستقطع، وربما أعقبها
في الدنيا السعادة والفلاح والعز والصلاح، فإن الدنيا كلها قليل،
وعمر الإنسان منها أقل القليل، وأوقات الابتلاء والامتحان تزر
يسير بالنسبة إلى عمره ووقته. فالله سائل العباد عما كانوا عليه في
الدنيا، فمن كان جوابه أن يقول: قد قلت يا ربي ما قلته في
كتابك وقاله رسولك محمد ﷺ، فهذا الجواب المشجي، ومن كان
جوابه تقديم العقول الكاسدة والآراء الفاسدة على ما قاله الله وقاله
رسوله لم يكن ذلك منجياً له من العقاب، ولا موصلاً له إلى
الثواب، فإن الله لا يسأل العباد إلا عما جاءت به المرسلون إقراراً
وعلماً وعملاً.

هذا وثالثهم فتساقبها وتسا في ما تدل عليه باليهتان
ذا جاحد الرحمن حقاً لم يقر بخالف أبداً ولا رحمن
يعني أن الملحد الثالث هو النافي لأسماء الله وتنافي ما تدل

عليه من صفات الكمال باليهتان والقول الباطل، وهذا أعظم أنواع
الإلحاد، فإنه يتضمن لجحد الخالق وجحد ربوبيته وأوصافه
المقدسة، وذلك كفرعون ونجوه، وكالفلاسفة الذين يشتمل قولهم
على جحد رب العالمين.

هذا هو الإلحاد قاحذره لعل الله أن ينجيك من نيران
وتفوز بالزلفى لديه وجنة المأوى مع الغفران والرضوان
هذا أي جميع ما تقدم من الأقسام هو الإلحاد بينه المصنف
لأجل أن يحذر منه، فإنه موجب لدخول النار، والحذر منه
موجب للنجاة منها، وللغفور بالزلفى عند الله في جنات النعيم،
ونيل المغفرة والرضى من الرب الكريم، فإن العبد إذا نجا من
الإلحاد في أسماء الله وآياته كان متبعاً لكتب الله ولما جاءت به
الرسول، وهذا الطريق الموصول إلى السعادة الأبدية، وإذا فات هذا
الطريق فما ثم إلا طرق الجحيم.

ولما كان أكثر الناس قد سلكوا طرق المهالك، واقتطعتهم
الشياطين عن سعادتهم إلا النادر منهم، وكانت النفس مجبولة على
وحشة التفرد وعدم الرفيق، حث المصنف رحمه الله على لزوم
الاستقامة وإن قل الموافق وكثر المخالف، فقال:

لا توحشك غربة بين الوري فالناس كالأموات في الجبان
أوما علمت بأن أهل السنة الـ غريباء حقاً عند كل زمان

قل لي متى سلم الرسول وصحبه والتابعون لهم على الإحسان
من جاهل ومعايد ومنافق ومحارب بالبغي والطغيان
وتظن أنك وارث لهم وما ذقت الأذى في طاعة الرحمن
كلا ولا جاهدت حق جهاده فسي الله لا يبد ولا يلسان
ملك والله المحال النفس فاستحدث سوى ذا الرأي والحيان
لو كنت وارثه لأذاك الألى ورثوا عداه بآثار الألوان

وكل هذا من حكمة الله تعالى، حيث جعل لأهل الحق من يعارضهم ويقاومهم، ويحرض على أذيتهم ورد ما معهم بأي طريق، ليقوم بذلك سبيل الجهاد، وليبين الحق من الباطل، فإن الحق إذا عارضه الباطل وأهله ظهر من أدلته وبراهينه ما يهر العقول، ويوضح واستعلن، وتبين من بطلان الباطل وفساده ما به العبرة لمن اعتبر، ويحصل بذلك التمييز بين الصادق من الكاذب، فإن المؤمن الصادق المتبع للحق على الحقيقة لا تزيده المعارضات إلا ثباتاً على ما هو عليه، ويزداد إيمانه ويكمل إيقانه، بخلاف من لم يباشر الإيمان قلبه، ولم يصل اليقين في حقه إلى مرتبة الجزم الذي لا شك فيه، فهذا لا يكاد يشت عند المحن والقلقل، فإنه ممن يعبد الله على حرف، فمع العافية المستمرة ربما لزم ما هو عليه، ومن لطف الله في حق هذا أن لا يقبض له من المحن ما يزيل إيمانه بل يعافيه، وإلا فسنة الله الجارية التي لا تغير ولا تبدل أنه لا بد من الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْبَبَ النَّاسُ أَنْ يُرَكَّبُوا

أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ (التكوير/ ١ - ٣)، فلو سلم أحد من المعارضين من المعاندين والمنافقين والمحاربين لسلم الرسول وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، فمن ظن أنه متبع لهم على الحقيقة وأنه سيسلم من الأذى في سبيل الله فهو غلط، فإنه لا بد أن يكون للرسول وأصحابه وراث، ولأعدائهم وراث، ويقوم سوق الجهاد، فإن الدنيا دار مجاهدة وعبادة، لا محل طمأنينة واستقرار، فإن الراحة التامة في جنات النعيم، ومن المعلوم أن الراحة لا تدرك بالراحة، بل لا بد من التعب والعناء، ولكن قد يهونه الله على عباده المؤمنين فيجدون من لذة المجاهدة في طاعة ربهم أعظم مما يجده أهل الشهوات الحسية، وهذا هو الواقع، ولكن مرارة الابتداء تمنع أكثر الناس عن هذا الأمر العظيم. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

وهذا النوع هو زبدة رسالة الله لرسوله، فإنه كل نبي يبعثه الله تعالى يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، فكل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الْفُتُونِ ۝﴾ (الحل/ ٣٦)، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وأمرهم

به على السنة زمنه، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب في الدنيا والآخرة لمن قام به، والعقاب في الدنيا والآخرة لمن تركه، وبه الفرق بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه من كل وجه، فيعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته، ويعرف شواهد وأدلة وبراهينه وحججه التي تؤيده وتثبت وتقويه، ويعرف شروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع، فأما حدة وتفسيره وأركانه ومكملاته فقد ذكرها المصنف في ضمن قوله:

هذا وثاني نوعي التوحيد توحيده العبادات متلك للرحمن
أن لا تكون لغيره عبداً ولا تعبد بغير شريعة الإيمان
فتقوم بالإسلام والإيمان وال
إحسان في سر وفي إعلان
والصدق والإخلاص ركنا ذلك التوحيد كالركنين للبيان

فحده أن يعلم العبد أن الله هو المألوه المعبود على الحقيقة، فيفرده بأنواع العبادة كلها الظاهرة والباطنة، يعني أنه يقوم بالإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها من الأعمال الظاهرة، وبالإيمان كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والتزام القيام بما أوجب الله وترك ما حرم الله، وبالإحسان كالقيام بحقائق العلم والإيمان والأعمال الصالحة، وهي روحها ولبها المقصود منها، فيقوم بذلك كله خالصاً لوجه الله تعالى مثاباً فيه

سنة رسوله محمد ﷺ.

وهذان الركنان الإخلاص للمعبود والمثابفة للرسول ركنا، وإن شئت قلت: شرطان لكل عبادة ظاهرة وباطنة، فكل عبادة خلت منهما أو من أحدهما فهي باطلة غير معتد بها، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر/ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ لِيُكُونَ إِلَهُكُمْ أَحَدًا ﴾ [البكة/ ٢٢]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه، قالوا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العبد إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم^(١): «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وحقيقة هذا التوحيد أنه يسمى توحيد الإلهية، بالنسبة إلى وصف الله المقتضي لأن يكون هو المحبوب المألوه المعظم المعبود وحده، ويسمى توحيد العبادة بالنسبة إلى وصف العبد، الذي هو إخلاص جميع أنواع العبادة التي شرعها الله ورسوله الله تعالى، فالإلهية وصف الله تعالى، والعبودية وصف العبد، ولهذا جمع الله بين الأمرين في قوله لموسى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(١) عن عائشة رضي الله عنها.

الطه / ١١٤، وفي قوله: ﴿وَإِنِ اللَّهُ رَزَقَ رَجُلًا مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [مريم / ١٣٦]، وقول الرسل لأممهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.

وإذا علمنا أن هذا حده وتفسيره، فمن المعلوم أن الداخلين في هذا الاسم متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وأنه بحسب قيام العبد بالإسلام والإيمان والإحسان والأعمال الصالحة عظمًا وعملاً وحالاً تكون مرتبة العبد في التوحيد وكماله فيه، والأجر والثواب في الدنيا والآخرة على هذا الأصل، بل كل خير في الدنيا والآخرة فإنه من آثار التوحيد وثمراته، كما أنه كل شر في الدنيا والآخرة فمن آثار ترك التوحيد.

ثم فسر المؤلف الإخلاص والمتابعة فقال:

وحقيقة الإخلاص توحيد المراء فلا يزاحمه مراد ثانى
لكن مراد العبد يبقى واحداً ما فيه تضيق لدى الإنسان
يعني أن الإخلاص حقيقة أن يوحد العبد مراده ومقصوده،
فتكون نيته وإرادته متعلقة بالله وحده لا شريك له، فلا يكون لهذا
المراد مزاحم يزاحمه من الأغراض النفسية، بل يكون وصف العبد
الإخلاص لله على الدوام، ويقوم بما يقوم به من الأعمال مستحضراً
لهذا المعنى الشريف، خالياً من الرياء والمقاصد المخالفة لهذا
المقصود، وبهذا يكون العمل صالحاً مقبولاً مثمرًا للثواب.

ولهذا قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله

ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه متفق عليه^(١). فتفاوت بين العاملين وصورتهم واحدة بحسب تفاوت النية والمقصود. وكذلك لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليزى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه^(٢).

فعلى العبد أن يجاهد نفسه على الدوام في كل فرد من أفراد العبودية على أن يقصد به وجه الله وحده لا شريك له، ويجتهد في دفع الخواطر المنافية لذلك، ليكون الإخلاص له وصفاً وخلقاً، وهو روح التوحيد والأعمال الصالحة، وتتمام ذلك أن يراعي متابعة الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله الظاهرة والخبية، وذلك لتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فينفي الإلهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده، ويتحقق بمعناها، ويصدق الرسول في خبره ويطيعه في أمره.

ثم ذكر نموذجاً من الأدلة الدالة على التوحيد والعبادة فقال:

إن كان ربك واحداً سبحانه فأخصصه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحداً أنشاك لم يشركه إذ أنشاك رب ثانى

(١) من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري.

فكذلك أيضًا وحده فاعبده لا تعبد سواه يا أخا العرفان

يعني إذا كنت متقنًا بأن ربك واحد فهو الخالق الرازق المربي لك ولسائر المخلوقات، فخصه بالتوحيد والأعمال الصالحة، فإذا علمت أنه الذي أنشأك وحده من غير مشارك له ولا معاون، فكذلك اعبد وحده لا تعبد غيره ممن لم يكن كذلك. وهذا الدليل - وهو الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة توحيد العبادة - كثيرًا ما يذكره الله في كتابه، ويستدل على المشركين الذين ينكرون توحيد الألوهية، فيلزمهم بأقوالهم توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس/ ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سجدة/ ١٩] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ مَنْ يَدِيرُ أَمْرَهُ مَكِيدٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَاوِبُ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٢٤﴾ [المؤمنون/ ٨٤ - ٨٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا دليل واضح جدًا ينتقل الذهن منه إلى المدلول بأول وهلة، فإنه إذا كان من المعلوم المتقرر عند كل أحد حتى المشركين بالله أن الله هو الخالق وحده المدير لجميع الأمور، وكل ما سواه مخلوق مدبر، فإن العقل والفطر يجزمان بتعين عبادة الله وحده، وأنه المستحق للعبادة دون من سواه ممن لا يملك ثقلًا ولا ضرًا

ولا حياة ولا ثورًا، ولا له من الكمال ما يقتضي أن يعبد لأجله.

واعلم أن أدلة التوحيد كثيرة جدًا يعسر عدُّ أنواعها، فضلًا عن أفرادها، ولكن سننقل هنا عبارتنا في التفسير على قوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ أَفَلَا يَلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ الآية [محمد/ ١٩].

قلت: العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة بما طلب منه علمه، وتعممه العمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله لمريض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد معه عقله، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن

هذا ذاع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوتان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعباديتها نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمشقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن معرفة ذلك والعلم به يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا وعلمًا وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا هو، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا يد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت وانفقت، وقامت براهين التوحيد من كل جانب، فهناك يزسخ الإيمان والعلم في قلب العبد بحيث يكون أعظم من الجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه

إلا نموًا وكمالًا. هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير وهو تدبير هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره، إلى آخر ما ذكرته على تلك الآية الكريمة.

وهذه المذكورات أجناس وأنواع للدلالة، لو فصلت وبسطت لبلغت شيئًا كثيرًا.

قال المصنف في «مدارج السالكين»^(١) لما ذكر توحيد المبطلين والمثبتين:

فصل

وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فورا ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضاءه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع حد الإفصاح، كما في أول الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

(١) ج ٣ ص ٤٤٩ مطبعة انصار السنة.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ صَلٰوةٍۭ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْآيَةُ ٱلْأُولَىٰ﴾، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد العليي الإرادي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ونهي وأمره فهو من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عن حكم من خرج عن التوحيد.

فالتقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فالحمد لله توحيد، رب العالمين توحيد، الرحمن الرحيم توحيد، مالك يوم الدين توحيد، إياك نعبد توحيد، إياك نستعين توحيد، أهدنا الصراط المستقيم توحيد، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد.

ثم أطال الكلام في هذا الموضع بما لا يستغني عنه المؤمن. والصدق توحيد الإرادة وهو بذل الجهد لا كسلاً ولا متواني والسنة المثلى لالكها فتو حيد الطريق الأعظم السلطاني فلواحد كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان يعني أن التوحيد لا يتم إلا بثلاثة أمور:

توحيد المراد، وهو الإخلاص كما تقدم.

وتوحيد الإرادة، وهي أن لا تكون الإرادة منقسمة، بأن يبذل العبد جهده ومقدوره في القيام بما أمر الله به علماً وعملاً ووصفاً من غير كسل ولا متواني ولا انحلال عزيمة، فهذا حقيقة الصدق.

وتوحيد الطريق، وهو اتباع السنة ظاهراً وباطناً.

ثم أجمل الثلاثة في قوله: فلواحد أي الله وحده، وهو الإخلاص، كن واحداً أي مجتمع الإرادة والقصد والعسل، وهو الصدق، في واحد وهي المتابعة، فسره بقوله أعني سبيل الحق والإيمان، أي وما سواها من الطرق فإنها طرق النفي والضلال والكفر والوبال.

هذه ثلاث مسعدات للذي قد نالها والفضل للثمان فإذا هي اجتمعت لنفس حرة بلغت من العلية كل مكان يعني أن من اجتمعت له هذه الأمور الثلاثة بأن يكون الإخلاص

خلقه ووصفه، وأعماله مقرونة به، والصدق والاجتهاد قريته وحامله،
واتباع الرسول طريقه، فهو السابق حقًا، المستولي على الغاية التي
لا غاية فوقها، والكمال الذي لا كمال فوقه، وحصلت له السعادة
والفلاح، والقوز والأرياح، فإن تخلف كمال العبد وحرمانه مدازه
على فقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

ق من الخيام فهم بالطيران	له قلب شام هاتيك البيرو
أعشاره كتصدع الجيران	لولا التعلل بالرجاء تصدعت
متمايلاً كتمايل التنوان	وتراء يسطه الرجاء فيتنني
متخلفاً عن رفقة الإخوان	ويعود يقبضه الإيأس لكونه
ن هما لأفق سمائه قطبان	فتراه بين القبض والبسط للذا
سراء عليه لا على الدهيران	ويذله سعد السعد فصار مـ
خصوا بخالصة من الرحمن	له ذبلك الفريق فسبأنهم
ورسوله يا خيبة الكسلان	شدت ركائبهم إلى معبودهم

يتعجب المؤلف رحمه الله ويستعظم من قلب من الله عليه
بالتحقق بالصدق والإخلاص والمتابعة، حتى صارت له نعتاً،
وصارت رغبته كلها في مرضي ربه في كل وقت، فكلما بدا له
منزلة من منازل السائرين وخصلة من خصال العاملين بادر إليها
شوقاً ومحبة، وانفاد لها طوعاً واختياراً، بمنزلة من طالع البيروق
من خيام الأحية على بُعد، فصار قلبه ينازعه، حتى يكاد يهيم أن

يطير إلى أحبابه ويتمتع بلقائهم، الذي هو ألد للمحبين، يمر
عليهم من أرواحهم، فلولا أن المحب يتعلل بقرب اللقاء ويحدث
نفسه باجتماعه بأحبيته لتصدعت أعشار قلبه، أي جوانبه، كتصدع
الحرير الذي خيره الحب وذعب بشغوره.

كذلك المحب لله تعالى، يجهد نفسه في مرضية حتى تنمو
محبة الله في قلبه، ويحدث له الشوق والقلق، فلولا أنه يلاطف
نفسه برجاء اللقاء لذابت نفسه واحترق لبه، ثم إذا نظر إلى نفسه
وتقصيره وتخلفه عن رفقة السابقين قبضه اليأس، فتجده بين
الخوف والرجاء اللذين هما لعبادته وأعماله كالقطبين في النجوم.

فالعبادات كلها تدور على الخوف والرجاء، فيرجو العبد
قبولها وتقريبها لربه، ويخاف من ردها وعدم القيام بها وبحقوقها.
إن نظر إلى رحمة الله ولطفه انفتح له باب الرجاء والطمع، وإن
نظر إلى تقصيره وما يستحقه الله من العبودية التي لا يمكن العبد
القيام بها أحدث له القبض، وباعتدال الخوف والرجاء يعتدل سير
العبد، فإذا رجح جانب الرجاء خيف الأمن من مكر الله، وحصل
الإدلال والسطح الذي لا يليق بالمخلوق، وإن رجح جانب الخوف
خيف منه اليأس والقنوط من رحمة الله.

وهذه المراتب الثلاث المحبة والخوف والرجاء أصل أعمال
القلوب، وبها تستقيم الأعمال الظاهرة والباطنة، كما جمعها الله
في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَكَ وَيَخَافُونَ أَنَّكَ عَذَابُ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾ [الإسراء/ ٥٧].

وقول المصنف: وبداله سعد السعود، البيت يحتمل أن مراده بهذا التشبيه أن سير هذا الفريق لما كان مصاحباً للخوف والرجاء، وكانت روحه المحبة كان سيراً محموداً مآله إلى العز والفلاح، والعلو وحصول الأرباح، بخلاف من كان سيره سير البطالين أهل الكل فإن سيرهم إلى وراء. قال تعالى: ﴿لَيْسَ شَأْنُكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر/ ٣٧].

ويحتمل أنه أراد بسعد السعود السير على متابعة الرسول والافتداء بهديه، وتجنب السير على الدبران، كالسير خلف كل من خالف الرسول. وقوله: لله ذياك الفريق، أي الموصوف بتلك الصفات الحميدة.

وهذا التصغير المراد به التعظيم والتعجب من حسن حالهم وعلو قدرهم، ولهذا قال: فإنهم خضوا بخالصة من الرحمن، أي أخلصهم الله من كل كدر واختصهم بولايته. قال تعالى عن خيار أنبيائه: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص/ ٤٦]، أي جعلنا ذكر الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكري الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتمر، ويذكرون بأحسن الذكر. وقوله: شددت ركائبهم إلى معبودهم، هذا هو الإخلاص لله ورسوله بالمتابعة، يا خيبة الكسلان الذي تخلف عن فريقهم، ولم يسلك مسلكهم في طريقهم.

فصل

في بيان ما يناقض هذا التوحيد

من الشرك الأكبر والأصغر ووسائل ذلك

والشرك فاحذره فشره ظاهر إذا القسم ليس بشايل الغفران وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا كان من حجر ومن إنسان يدعو أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمنجبة الرحمن

يعني أن الشرك نوعان: ظاهر، وهو الشرك الأكبر المخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفران، الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة، بل هو من أصحاب النار. وحده اتخاذ الند للرحمن من الملائكة أو الرسل أو الأولياء أو الحيوانات أو الجنادات، يتقرب إليه كما يتقرب إلى الرحمن بالدعاء والخوف والرجاء والمحبة وسائر أنواع العبادة، فحقيقته أن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى، ومواء سمي من تقرب إليه بذلك إلهاً أم لا. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/ ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون/ ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس/ ١٠٦]، ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن/ ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [البقرة/ ١٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالات على كفر من عبد مع الله غيره

الْمُتَحَبُّونَ الرَّكَعِيُّونَ أَنْتَجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُتَوَّابِينَ ﴿١١٢﴾ (الشورى/ ١١٢).

فالمحبة ثلاثة أنواع:

محبة الله، وهي روح التوحيد وأصل العبادات والتقربات كلها.

ومحبة في الله، وهي محبة ما يحبه الله من أنبيائه وأوليائه والأعمال المقربة إلى الله، وهذه من تمام محبة الله، وبحسب قوة محبة الله تقوى هذه المحبة. ولهذا ورد في الدعاء المشهور: «اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقرب إلى حبك»^(١).

والثالث: المحبة مع الله، وهي محبة المشركين لأهلهم مع الله محبة عبودية، وهذه منافية للتوحيد من كل وجه. وثم محبة طبيعية لا تحمد ولا تذم إلا لأثارها، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الأليف والوطن ونحو ذلك.

ليس العبادة غير توحيد الله - محبة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن حقيقة المحبة هي توحيد المحبة والذل، والتعظيم لله تعالى، فإن العبادة حب كامل وذل تام للمحبيب.

والحب نفس وفاقه فيما يحب ويغضض مالا يرتضي بجهنم

(١) رواه الترمذي عن أبي الدرداء.

وفواقه نفس اتباعك أمره والقصد وجه الله ذي الإحسان

هذا هو الإحسان شرط في قبول السعي فالفهم من القرآن

والاتباع بدون شرع رسوله عين المحال وأبطل البطلان

فإذا نبذت كتابه ورسوله وتبعته أمر النفس والشيطان

وتخذت أندادا تحبهم كحب الله كنت مجانب الإيمان

يريد رحمه الله أن المحبة في الحقيقة نفس موافقة الله في محبة ما يحبه ويغضض ما يبغضه، وذلك يتحقق باتباع أمر الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ في أصول الدين وفروعه في ظاهره وباطنه، مع الإخلاص لله تعالى وإرادة وجهه الأعلى. وهذه الموافقة المشتملة على المتابعة والإخلاص هي الإحسان الذي قال الله فيه: ﴿يَتْلُوكُمْ أَيُّكُمْ بِأَمْرٍ عَمَلًا﴾ [المائدة/ ١٢]، أي أخلصه وأصوبه، وفي قوله: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسنِ رَبِّهِمْ﴾ [يونس/ ٢٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف/ ٣٠].

والمتابعة لا تمكن إلا باتباع الرسول ﷺ، فمن نبذ كتاب الله وسنة رسوله، وتبع أوامر النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، واتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله، خرج من الإيمان من حيث يظن أنه مؤمن، فإن اتخاذا الأنداد من دون الله مناقض لقول لا إله إلا الله، وإن الخروج عن الاهتداء بالكتاب والسنة مناقض لشهادة محمد رسول الله، وما أكثر من هو بهذا الوصف ممن ينتسب إلى الإيمان والتحقيق، كما

قال المصنف :

ولقد رأينا من فريق يدعي الـ
جعلوا له شركاء والوهم وسو
والله ما ساووههم بالله بل
والله ما غضبوا إذا انتهكت محـ
حتى إذا ما قيل في الوثن الذي
فأجارك الرحمن من غضب ومن
وأجارك الرحمن من ضرب وتم
والله لو عطلت كل صفاته
والله لو خالفت نص رسوله
وتبع قول شيوخهم أو غيرهم
حتى إذا خالفت آراء الرجا
نادوا عليك ببدعة وضلالة
قالوا تنقصت الكبار وسائر الـ
هذا ولم تسلبهم حقاً لهم
وإذا سلبت صفاته وعلوه

إسلام شركاً ظاهراً التبيان
وهم به في الحب لا السلطان
زادوا لهم حباً بلا كتمان
رم ربهم في السر والإعلان
بدعونه مافيه من نقصان
حرب ومن شتم ومن عدوان
زير ومن سب ومن سجان
ما قابلك ببعض ذا العدوان
نصاً صريحاً واضح التبيان
كنت المحقق صاحب العرفان
ل لنة المبعوث بالفرقان
قالوا وفي تكفيره قولان
علماء بل جاهرنا باليهتان
ليكون ذا كذب وذا عدوان
وكلامه جهراً بلا كتمان

لم يغضبوا بل كان ذلك عندهم عين الصواب ومقتضى الإحسان
والأمر والله العظيم بزياد فـ
وإذا ذكرت الله توحيداً رأيت وجوههم مكسوفة الألوان
بل ينظرون إليك شزراً مثل ما نظر الثبوس إلى عصا الجويان
وإذا ذكرت بمدحة شركاءهم يستبشرون بتأثير الفرخان
والله ما شتموا ورائع دينه يا زكمة أعيت طيب زمان

وهذه الآيات واضحة المعنى . والأمر كما قال المصنف عن
هذا الفريق المنتسب للإسلام، الذي يقتضي منهم دينهم تعظيم
ربهم، والقيام له بحق العبودية، ولرسوله بحق الرسالة، فعكسوا
القضية، فاتخذوا لهم أنداداً من دون الله، يعبدونها ويغضبون لها
أعظم مما يغضبون لله، والدليل على هذا أنه لو انتهكت محارم الله
لم يغضبوا، وإذا قيل فيما يتحلونه من ذلك الوثن بعض ما فيه من
التقص اشتم غضبهم، ويتباشرون إذا مدحت شركاءهم، وإذا ذكر
توحيد الله تغيرت وجوههم واشمازوا، وكذلك جعلوا لهم رؤساء
يطيعونهم في كل حال، وجعلوهم بمنزلة الرسول المعصومة أقواله
وأفعاله، فيقدمون طاعتهم على طاعة الرسول، ومن خالفهم لقول
الرسول رموه بأنه متقص لهم مبغض، فهل بقي بعد هذا إيمان،
ولكن لكثرة الإساس قل الإحساس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فتسألك اللهم العفو والعافية والمعافة في الدنيا والآخرة،

وأن تحفظ لنا ديننا من كل شرك وشبهة وبدعة وضلالة ومعصية،
إنك على كل شيء قدير.

تمَّ ما أردت تعليقه، والله الحمد والمنة والفضل والإحسان،
وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. فرغت من
تسويده في ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٤، وأنا الفقير إلى الله عبدالرحمن
بن ناصر بن سعدي.

وتم نقله من خط المؤلف شيخنا رحمه الله في ٢٠ شوال سنة
١٤١٩، بقلم الفقير إلى الله محمد بن سليمان بن عبدالعزيز آل
بسام، غفر الله له ولوالديه ولشيخه وللمسلمين.

بلغ مقابلة وتصحيحًا على نسخة بخط المؤلف، وذلك بحسب
الإمكان، بقلم كاتبه وابنه منصور، نسأل الله المغفرة والرحمة في
١٣ ذي القعدة سنة ١٤١٩.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
خطبة المؤلف	٩
فصل في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين	١٢
توحيدهم نوعان	١٤
الأول التنزيه للرحمن	١٩
هذا وثاني نوعي السلب	٢٣
فصل في النوع الثاني	٢٥
حي مريد	٢٦
هو أول هو آخر	٢٧
وأما عبوديته باسمه الظاهر	٣٠
وأما تعبده باسمه الباطن	٣٢
وهو العلي فكل أنواع العلو	٣٧
وهو العظيم بكل معنى	٣٨
وهو الجليل فكل أوصاف الجلال	٣٩
وهو السميع يرى ويسمع وهو البصير	٤٤
وهو العليم أحاط علمًا	٤٦
فصل وهو الحميد فكل حمد	٥٠
من كتاب سفر الهجرتين فصل	٥٢
فصل وهو المكلم عبده موسى	٥٩
النوع الثاني تكليمه لعباده بواسطة	٦٠
وهو التقدير وهو القوي	٦١

الموضوع	الصفحة
وهو العزيز قلن يرام جنبه	٦٤
وهو الغني وهو الحكيم	٦٥
والحكمة العليا على نوعين	٧٢
وهو الحي فليس يفضح عبده	٨٥
وهو الحليم فلا يعاجل عبده. وهو العفو	٨٧
وهو الصبور على أذى أعدائه	٨٩
فصل وهو الرقيب على الخواطر	٩١
وهو الحفيظ عليهم. وهو الكفيل بحفظهم	٩٣
وهو اللطيف بعبده ولعبده	٩٥
فصل وهو الرقيق يحب أهل الرفق	٩٨
وهو القريب وقربه المختص	٩٩
وهو المحجب يقول من يدعو	١٠٣
وهو الجواد فجوده عم الوجود	١٠٤
وهو المغيث لكل مخلوقاته	١٠٥
وهو الرودود يحبهم ويحب	١٠٧
وهو الشكور قلن يضيع سعيهم	١١٠
وهو الغفور قلن أتى بقرابها	١١٥
وكذلك الثواب من أوصافه	١١٦
وهو الإله السيد الصمد	١١٨
وكذلك القهار من أوصافه. وكذلك الجبار	١١٩
فصل وهو الحبيب حماية وكفاية	١٢١
وهو الرشيد فقله وفعاله	١٢٢
والعدل من أوصافه في فعله	١٢٤
فصل ومن أوصافه القدوس. وهو السلام	١٢٤

الموضوع	الصفحة
والبر في أوصافه سبحانه	١٢٨
وكذلك الوهاب من أسمائه. وكذلك الفتاح	١٢٩
وكذلك الرزاق من أسمائه	١٣١
فصل ومن أوصافه القيوم. والحي يتلو	١٣٣
هو قابض هو باسط	١٣٥
وهو المعز لأهل طاعته. وهو المذل لمن يشاء	١٣٦
هو مانع معطي فهذا فضله	١٣٧
فصل والنور من أسمائه	١٣٨
فصل وهو المقدم والمؤخر	١٤٥
فصل اعلم أن المصنف قد استوفى معظم شرح الأسماء	١٥٤
فصل هذا ومن أسمائه ما ليس يفرد	١٥٦
فصل ودلالة الأسماء	١٥٨
قاعدة أصولية وكلام نقيس من بدائع الفوائد	١٥٩
تحذير الناظم من الاتحاد في أسماء الله وصفاته	١٧١
ما وقع فيه المشركون وأهل الاتحاد ومن تبعهم ممن يدعي الإسلام	
من الاتحاد في أسماء الله وصفاته	١٧٣
المعطلون ومن تبعهم يدفعون النصوص	١٧٥
ما وضعوا لدفع النصوص وهو معارضة العقل للنقل	١٧٨
كلام شيخ الإسلام في إبطال ما وضعوا	١٨٠
قَسَمُ الناظم أنه لم يكذب عليهم فيما ذكره عنهم	١٨١
نصيحتة للمثبتين لأوصاف الله بالصير	١٨٢
النافي لصفات الله هو ثالث المشركين والمعطلين وهم الملحدون	١٨٢
حث الناظم على لزوم الاستقامة وإن قل أصحابها	١٨٤
فصل في النوع الثاني من توحيد الأنبياء والموسلين	١٨٥

الموضوع	الصفحة
حقيقة الإخلاص توحيد المراد	١٨٨
فلواحدكن واحداً في واحد	١٩٥
يتعجب الناظم ممن ذكر حالهم في الاستقامة	١٩٦
فصل في بيان ما يناقض التوحيد	١٩٩
تحذير الناظم من الشرك	١٩٩
المحبة موافقة المحبوب فيما يحب	٢٠٠
رؤية الناظم الشرك ممن يدعي الاسلام	٢٠٤

صفحة	رقم السطر	خطأ	صواب
٤١	الأخير	ولو	لو
٤٨	١٥	الوجود	الموجود
٥٤	قبل الأخير	حمداً وذنماً	حمداً أو ذماً
٧٤	٦	ليتضمنها	لتضمنها
٨٨	١٠	رواه مسلم	رواه الترمذي
٩٩	٤	رفع	دفع
١٠١	٥	أشار إليه النبي	أشار النبي
١٠٥	١٤	ومن وجوده	ومن جوده
١١٠	٥	القائمين	القائمين
١١٩	١٨	أمن	أم من
١١٩	٢٠	الله فقل	الله
١٢٧	٣	كا	كاه
١٢٩	١٤	احدا	أحد
١٥٨	٧	٤	٣
١٦٢	١٦	يكون	تكون

تم التصحيح بقلم الفقير إلى مولاه محمد بن سليمان القيسام لعلم ١٤٢٥/٢/١هـ